قصَصُ الرّحَالة والمكتشِفين

٤

# ولــتر رالــى

بقلم

محمد عبد الغنى حسن

الطبعة الرابعة

دارالمعارف

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الإلكترونى
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

# على شواطئ البحار

فى يـوم مـن أيـامِ سنة ١٥٥٢، وفـى مكـانٍ صغيرٍ قـربَ ميناء «بدلى سولترتون» (Budleigh Salterton) الواقعةِ عَلى بحرِ المانْش، وفـى مقاطعةِ ديفونشير المشـهورةِ بشمسِـهَا وَدفْئِهَا ومناظرِهَـا الجميلـةِ ومزارعهَا الخِصبةِ، وفى قرية «هايز برتون» (Hayes Barton) بـالذّات، وُلِد طفلٌ صغيرٌ لأبٍ كانَ من أشرافِ الأقَاليم، وكانَ يملكُ مِنَ الأرضِ الزراعيةِ والممتلكاتِ الخاصّة ما جَعله سيدًا ملحوظَ المكانةِ فِى ذلكَ الإقليمِ الإنجليزى الجميل.

ولم تكنْ تلكَ القريةُ الصغيرةُ وما يحيطُ بـهَا مـنَ الأرضِ، الموطـنَ الأصلىَّ لوالدِ ذلكَ الطفل، وإنما كانتْ قريةُ «فاردل» (Fardell) القريبة مِنْ ميناء «بليموث» المشهورةُ هى الموطنُ الأولُ لتلكَ الأسـرةِ، التِـى انتقلت فى سنة ١٥٢٠ إلى ذلكَ الموطنِ الجديد.

ويظهرُ أنّ والدَ ذلكَ الطفل كانَ يحبّ التنقلَ من مكـانٍ إلى مكَـانٍ، فلم يكدْ يستقرُّ فى ذلكَ المكانِ الجديدِ حتى اتّجهَت رغبتُـهُ إلى مدينـةِ «إكستر» (Exeter) التى تُعد من قديمٍ عاصمةُ مقاطعة «ديفونشـير» وأكبرُ المراكزِ الثقافيةِ والاقتصاديةِ والاجتماعيةِ فِيهَا.

ولم تمنع إقامةُ الأبِ فـى إكسـتر مـنْ أنْ يكـونَ قَيِّمًـا عَلـى كنيسـةِ «بـدلى» الشَّـرقية، وقـد اضطَرتـهِ هـذِه الوظيفـةُ إلى أنْ يقيـمَ فـى «بدلى» أكثرَ أوقاته، حتى يُتاح له الإشرافُ مـنْ قـربٍ عَلـى الكنيسـةِ التى يتولّى القيـام عَلَيْهَا. وفـى هـذِه المدينـةِ، أو فِـى قريـةِ «هـايز» بـالذّات، وُلـد الطفـل «ولـتر رالى» الـذِى عُـرف فـى تـاريخِ الكشـوفِ والرحلاتِ باسم: (Sir Walter Ralegh) [1].

ولا يهمنا هنا أنْ نعرفَ أنّ رالى الأب تزوجَ ثلاثَ مراتٍ عَلى التـوالى، ولكننا نذكُر هذِه الحقيقةَ ليتضحَ لنا منها أنه كانَ لـه إخـوةٌ أشـقّاء، وإخوةٌ غيرُ أشِـقاء. وأنّ أخَـاه غـيرَ الشـقيقِ «جـورج رالى» كـانَ مِـنَ الذينَ أعدُّوا سفينةً خاصّةً منْ سفنِ الأسطولِ الإنجليزى، الذِى ذهبَ لمقابلةِ «الأرمادا» الأسبانية ١٥٨٨ حينَ شَبت نيرانُ المنافسةِ والعـداوةِ والحربِ بينَ الأمتين.

عَلـى أنـه كـانَ لـه أخٌ آخـر مِـنْ أمـه اسـمه «همفـرى جلـبرت» (Hamphrey Gillbert). فـلا يعجـبنّ القـارئُ إذَا مَـا رَأى الأخويْـنِ «ولـتر وهمفـرى» لا يحمـلانِ اسمًا واحـدًا للأب، فإنّ أمَّهمَا واحدةٌ هى السـيدةُ «كاتريـن»، أمـا أبواهمـا فمختلِفَـان. ومـن هنـا يتضـحُ أنّ «همفـرى» هـو ابـنُ السـيدةِ «كاتريـن» مـن زوجـهَا الأولِ «جلبرت».

---

(١) يكتب اسمه أحيانًا هكذا: Walter Raleigh.

والحقُّ أنَّ «السير ولـتر رالى» كـانَ متصـلاً مـن ناحيـةِ أبيـهِ وأمـه بأسرٍ إنجليزيـة عريقـةٍ قديـمَةِ الشـهرة فـى مقـاطعتى «ديفـون» و «كورنوال»، وتحملُ هذِه الأسرُ أسماءً لها مكانتهَا فـى المجتمعِ الإنجليزى منْ قديمٍ، كأُسـرِ كورتنـايز، وجرنفيـل، وراسـل، ودريـك، وجلـبرت وغيرهم.

ولا يُعلم عنْ طفولةِ الوليدِ ولتر رالى أكثر منْ أنه قضَـى الأعـوامَ الأُولى فى قريةِ «هـايز»، وأنـه تلقَّـى تعليمَـه الابتدائـى فـى مدرسـةِ «بدلى» الابتدائية، لأن قريةَ «هايز» لم يكنْ فيـها مدرسـةٌ، وأنـه كـانَ يغدُو ويروحُ كُلّ يومٍ دِرَاسى مِنَ القريةِ إلى المدرسةِ حيثُ يُطل علـى البحرِ ميناءُ بدلى الجميلِ الصّغير، بشَـاطئه الـذِى لا تكسـوهُ الرمـالُ كما تكسِى الشواطئَ عـادةً، ولكنْ يكسوهُ ذلكَ الحصَـى أو «الزلـط» المُلَوَّنِ المختلفِ الأحْجَام.

ولا شكَ أنّ الطفلَ «ولتر» هنا كانَ يغْـدو إلى الشّاطئ فـى بعـض فَراغِ وَقْته، وأنه كانَ يلتقِى معَ البحّارةِ والملاّحينَ الذينَ يفدونَ على هذا الثغرِ الصغيرِ كلّ يـومٍ. ولا شـكّ أنـه اسـتمعَ إلى أحـاديثَ هـؤلاءِ البحارةِ عنِ البحار وعجائبها، وأسفارها ومتعةِ الحياةِ فيها.

وأغلب الظنّ أنـه تـأثرَ بأحـاديثَ هـؤلاءِ الملاّحـينَ، واشـتاقَ إلى أنْ يركبَ مُتُونَ الأمواجِ[1] كَمَـا يركبـونَ، ومـنْ هنَـا يقـولُ المؤرخـونَ إنّ ميناءَ «بدلى» - بما كانَ يزدحمُ فيه من القـواربِ والسـفنِ والملاحـينَ، ومنْ تلكَ الحياةِ البحريةِ الصّاخبةِ - هـو الـذِى أوحَـى إلى «ولـتر» أن يشغفَ بالبحر وأنْ يُوليه كثيرًا منْ عِنَايته واهتمامِه، حتى وهو فـى أرفعِ المناصبِ فى بلاطِ الملكة «إليزابث» ملكةِ الإنجليز...

على أنّ ميناء «بدلى» لم يستأثرْ وَحْده بعزيةِ احتضَـان هـذا الفَتـى المغامِر، وإيحاءِ فكرةِ البحـار إليـه وتشويقهِ إلـى ارتيـادِها وكشـفِ مـا وراءَهَـا، فقـد كـانَ الطفـلُ يغـدُو أيضًـا إلى ميناء «سـيدموث» (Sidmouth)، وهنَا زادَ شوقُه إلى البحرِ، وزادَ تعلّقه به حتّى أصبحَـت الأرضُ لا تسره، والحقولُ الجنوبيةُ الخصيبةُ لا تُبهجه؛ قدرَ ما يَسره التطلّع إلى البحرِ من فوقِ الوهادِ العاليةِ المشرفةِ عَلى الجنوبِ.

ومما يؤكدُ لنا هذا الحـبّ العميـقَ بـينَ الطفـلِ «ولـتر» وبـينَ البحـرِ والمـلاحينَ ذلكَ الطـابع البحرِى والاتجّاه الملاحِى، الذى ظهرَ فى كـلّ

---

(١) مُتُون الأمْوَاجِ: ظُهُورها.

ما تركَه لنا «ولتر رالى» مِنْ آثارٍ أدبيةٍ رائعةٍ، فقد كانَ أسلُوبه الأدبى الجميلُ يَنِمُّ عنْ حبٍّ دفينٍ للبحار، وفهمٍ لها، وامتزاجٍ بهَا.

وقد عَبّر الرسامُونَ وأصحابُ الفنون عنْ حبّ الفتى «ولتر» للبحرِ ورجَاله بطرقٍ مختلفةٍ، كان أوضحهَا تلكَ اللَّوحَةُ الزَّيْتيَّةُ الرائعةُ التى رسمهَا سنة ١٨٧٠ الفنان الإنجليزى المشهور «السير جون ميليه» بعنوان «طفولة رالى»، فقد تخيَّلَه الرسامُ جالسًا على شاطئ البحرِ فى ثغر «بدلى سولترتون» عندَ قدمى ملاحٍ قد لوحَت الشمسُ



وجْهه، وكَستَه بلونٍ أسمرَ جميلٍ، والفتى يستمعُ فى سرور وشوقٍ وشغفٍ إلى مُغامراتِ ذلكَ البحّار، وحديثَ مُخَاطراتِه البحريةِ اللّذيذةِ.

***

ولم يتلقَ الفتَى «ولتر» مَعَارفه البحريةَ ومعلوماتِه عنِ البلادِ والرحلاتِ والأسفار منْ أفواهِ الملاحين والبحّارين فَحَسْب. لقد كان فى حَالة منَ الغِنى تمكنه منْ أنْ يشترِى منَ الكتبِ ما يشاءُ له هَوَاه، فالمالُ بينَ يدى أبيه فى غيرِ ضيقٍ ولا إشحاح. والوقتُ لديه فسيحٌ[1] يَسْمَحُ له بالقراءةِ والمطالعةِ، وَهُمَا السبيلُ إلى كسْبِ المعرفةِ وتكوينِ الشَّخْصيّةِ والاستزادةِ منَ المعلوماتِ.

ولقد بلغَ منْ شغفِ الفتى «ولتر» بالقراءةِ وإكْبابه عليها أن أحدَ مُؤَرخيه وكاتبى سيرته قال عنه: «إنه كانَ قارئًا لا يتطرقُ إليه الكلال»[2].

وكان من عَادةِ الأغنياءِ وأشرافِ الإنجليز فى ذلك الزمانِ أن يبعثُوا بأبنائهم إلى الجامعات الكبرى العريقةِ فى التاريخ، مثل «كمبريدج»، و«اكسفورد». فلماذَا لا يذهبُ الفتى «ولتر رالى» إلى جامعةِ «اكسفورد»، وعنده منَ الوسائلِ ما يستطيعُ به أن يدخلَ جامعةً لها شُهرتها فى عَالم الجامعَات؟

لقد دخلَ «ولتر» جامعةَ «اكسفورد» وظلّ ثلاثَ سنواتٍ فى إحدَى كُلياتها. ولا تزالُ سجلّات كلية «أوريل» الجامعية تحتفظُ باسم «ولتر رالى» كأحدِ أعضائها النابهينَ.

---

(١) فسيحٌ: المقصُودُ هنَا فيه فرَاغٌ.

(٢) الكَلال: الضَّعْف. التَّعَب..

ولعلَ القصصَ والحكاياتِ التى كانَ يسمعها الفتى «ولتر» على شاطئِ البحرِ فى «بدل» منْ أفواهِ الملاحينَ والبحّارة، كانَ لها دخلٌ كبيرٌ فِى إثارةِ روحِ المغامرةِ عنده فى البحرِ والبر على السواء.

قلنا إنَّ والدَ الفتى «ولتر» كانَ يحبّ التنقّل منْ مكانٍ إلى مكانٍ، وقد ورثَ ابنُه هذه الخاصيةَ فيه، فلم يكد يستقرّ فى لندن حتّى التحقَ بفرقةٍ منَ الجيشِ الإنجليزى ذاهبة للاشتراكِ فى ثورة «الأراضِى المنخفضَة»، التى انتهت بظهور الجمهوريةِ الهولندية.

وعَاد الفتى من هولندة سنة ١٥٧٨ ليبدأ حياتَه فى البحَار، فذهبَ إلى «دارتموث» لينضمَّ إلى أخيهِ غيرِ الشقيقِ: السير «همفرى جلبرت»، فى إعدادِ أسطولٍ منْ إحدَى عَشْرة سفينةً، قيلَ إنها ستذهبُ فى رحلةٍ كشفيةٍ فيما وراءَ البحَار..

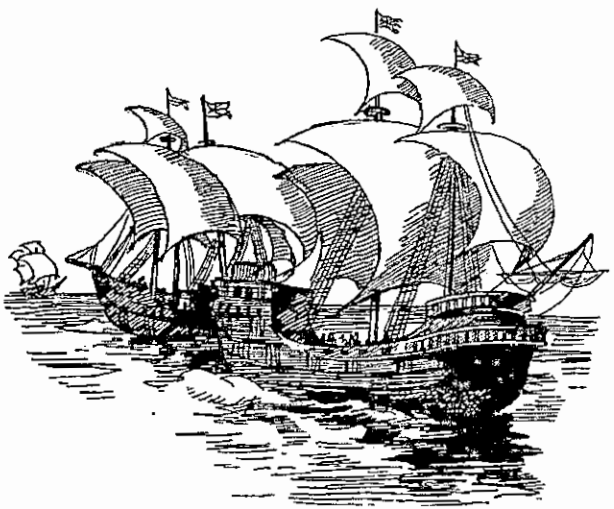

وأخذت «دارتموث» تعدّ العدةَ لبناءِ هذا الأسطُول، ولم تستطعْ بعدَ تأخيرٍ طويلٍ أن تنجزَ منَ السفنِ غيرَ سَبْعٍ فقط: منها أربع كبارٍ، أما الثلاثُ الباقيةُ فكانت صغيرةً إلى حدٍّ لا يُرْجَى معه سَفر طويل.

وفى شهر نوفمبر من سنة ١٥٧٨ أبحرت السفنُ السبعُ من ميناء «دارتموث» المطل على بحرِ المانش.

ولم تكن تسميةُ هذه الرحلة «بالرحلة الكشفية» إلا تغطيةً للغرضِ الخفى من إبْحارِهَا، فإنها كانت مُزودة بالمدافعِ والأسلحةِ التى لم تكنْ سفنُ الاستكشافِ فى حاجةٍ إليها !

وتشاء الأقدارُ أن يكونَ ثلاثةٌ من أسرة «ولتر رالى» فى قيادةِ هذا الأسطولِ، فالسير «همفرى جلبرت» - الأخُ غيرُ الشقيق «لولتر» - يقودُ السفينةَ «أدميرال» التى تبلغ حمولتها ٢٥٠ طنًّا. و«كاريو رالى» - الأخُ الأكبرُ «لولتر» - يقودُ السفينةَ «فايس أدميرال». والفتى «ولتر رالى» يقودُ السفينةَ «فالكون» التى تبلغُ حمولتهَا مائةَ طن.

والحقُّ أنّ السير «همفرى جلبرت» كانَ له آمالٌ كبيرةٌ فى ارتيادِ البحار، وكشفِ أراضٍ جديدةٍ، واكتسابِ مغانمَ جديدةٍ، سواءٌ أكانَ ذلكَ عن طريق القرصنةِ والتلصُّصِ والسطْوِ فى البحَار، أم عن طريقِ الكشفِ فى سلامٍ وهُدُوءٍ.

وقد بلغَ من طمُوحه أنه كانَ يرسلُ إلى الملكة «إليزابث» التماسًا إثر آخر يطلبُ منها الترخِيصَ له بارتيادِ عوالمَ جَديدةٍ، وخاصَّةً فى قارةِ أمريكَا أو العالمِ الجديد .

## الطريق إلى البلاط ...

عادَ «ولتر رالى» إلى لندن بعدَ رحلةٍ غيرِ ناجحَةٍ إلى المحيطِ الأطلسى، وعادَ إلى بلاطِ الملكة «إليزابث» ليكونَ على أطيبِ العلاقاتِ مع كبار رجالِ القصرِ من أمثال «ليستر»، و«أكسفورد»، و«سدنى»، و«توماس بيروت» وغيرهم، ولكنَّ هؤلاء الرجَال كانَ بينهم من أسبابِ الحقدِ والعداوةِ والمنافسةِ ما جعلَ «ولتر رالى» يتورطُ معهم، فتعرَّضَ لعداوةِ «لورد أكسفورد»، كما قامَ نزاعٌ عنيفٌ بينه وبينَ السير «توماس بيروت»، ولما عرضَ أمرهما على مجلسِ النبلاءِ، قرَّر حَبْسَهمَا على ذمةِ الأسطُول! ولم يطلقْ سراحهمَا إلا بعدَ مبلغٍ من المالِ دفعاه ضمانًا لحفظِ السلامِ بينهمَا !

وبعدَ قليلٍ، وفى صيفِ عام سنة ١٥٧٩ نفسِه أبحر «ولتر رالى» إلى «إيرلندة» قائدًا لحملةٍ منْ مائةِ جُندى إنجليزى، لتأديبِ الثائرينَ فى تلكَ الجزيرةِ المجاورةِ لإنجلترا. وقد ظَهرت صَرَامتُه وشدتُه حين عُهِدَ إليه مُحَاكمة «جايمس فتزجيرالد» بتهمةِ الخيانةِ، فقد علَّل الحكمَ عليه بالموتِ قائلاً: إن العطفَ والرحمةَ بالمجرمينَ، تُعد قسوةً مع المسالمينَ الطيبينَ.

ولعلَّ أبلغَ الأمثلةِ على قَسْوته ما فعلَه مع مُغامرى البحار من الأسبانيينَ والإيطاليين الذينَ بنوا قلعةً وأقامُوا معسكرًا على ساحلِ

«إيرلندة» ، فقد أعملَ السيفَ فِى رقَابهم جميعًا، وكانوا يبلُغونَ بضعَ مئـاتٍ، وعلَّلَ عمله هـذا بأنَّ هـؤلاء القراصِنَة قـد أباحُـوا لأنفسهم - من غيرِ توكيلٍ قَانونى - أن يثـيرُوا أهـلَ «إيرلنـدة» علـى الإنجليزِ !

ولـم يكنْ «ولـتر رالـى» فِـى فعْلتـه الشنيعةِ هـذه إلا منفـذًا لَمشيئةِ «اللـورد جـراى» مُفـوض إنجلـترا فـى «إيرلنـدة» . وكـانَ «إدموند سبنسر» الشـاعر الإنجليزى العظيـم حـاضرًا وقـتَ حـدوثِ المذبحَةِ، فأقرَّ جراى عَلى إرادته، وهنأ «ولتر رالى» عَلى طَاعته! وقابلَ الإنجليزُ هذه المذبحَةَ بالتهليلِ والاستحسانِ! ولم يجرؤْ سفيرُ أسـبانيا فـى لندن حينذاكَ أن يرفعَ صَوته بالاحتجَاج...

كانت «إيرلندة» فى ذلـكَ الزمـانِ فـى ثـورةٍ شـديدةٍ علـى الإنجليزِ وحُكَّامـهم فيهَـا، وكـانت مُصممـة علـى أن تنفصـلَ عـنِ إنجلـترا وتتولّى حكمَ نفسهَا بنفسـهَا. وقـد أظهـرَ الإيرلنديـونَ فـى ثورتـهم هذه ضُروبًا[١] منَ الشجاعةِ والتضحيةِ والبسالةِ التى كانت مَضْـربَ الأمثالِ.

ولما نجحَ «ولتر رالى» فى حملته التأديبيةِ العنيفةِ عُينَ حاكمًا مؤقتًا، واتخذَ مدينةَ «ليسمور» مقرًّا للقيادةِ العامـةِ. وفـى يـومٍ مـنَ الأيـامِ، وبينما هو فى طَريقـه مـن «ليسـمور» إلى «كـورك» مـعَ ثمانيـة مـنَ

---

(١) ضُرُوبًا : يَقْصِدُ ألْوانًا.

الفرسان وثمانينَ منَ المشاة، إذا بفرقةٍ منَ الإيرلنديين تُهاجمهم. ولكنَّ الثوارَ لم يستطيعُوا بوسَائلهم الثوريةِ غيرِ المنظمـةِ أن يثبتُوا أمامَ فرقـةٍ منظمـةٍ مـنَ الجيـشِ الإنجليزى، فلجـأُوا إلى الفـرار. ولكـنَّ «ولتر رالى» أصـرَّ علـى مُلاَحقتـهم، فـاضْطُرُّا إلى القتـالِ فـى عنـفٍ، واستعملُوا المدَى والسَّكاكينَ فى طعنِ الخيل، فأصَابت طعنةٌ حاميةٌ مقتلاً من حصانِ «ولتر»، ولولاَ النجدةُ السريعةُ التـى أحَاطتـه مـن رجَاله لـخرَّ صريعًا[1] فوق حصَانه المضرَّجِ بالدمَاء.

وكانتْ هذه المعركةُ نهايةَ حملةِ «ولـتر» فـى «إيرلنـدة»، فـأعيدَ إلى إنجلترا فى مَكانه القديم فى البلاطِ.

***

عَاد «ولـتر» إلى لنـدن مملـوءًا بآمـالٍ كثـيرةٍ، إنـه يتمَنَّـى أن يكـونَ شخصيةً هَامَّـةً مـن شـخصياتِ القصـرِ، ورجـلاً كبـيرًا مـن رجـالِ البلاطِ. وفى سبيلِ ذلكَ حـاولَ الفتَـى الأنيـق أن يلفـتَ نظـرَ الملكـةِ الشَّابة إليه بأىِّ سبيلٍ! وفى مدينة «جرينتش» - التِى نَقِيسُ الزمـنَ ونضبطُ سَاعَاتنا دائمًا بالنسبة إليها - لأنَّ فيها «خط الطول صفـر» الذى تبدأ منه خطوطُ الطولِ شرقًا وغربًا - فى هذِه المدينةِ بـالذاتِ كانَ الفتى «ولتر» وجهًا لوجهٍ أمامَ الملكةِ «إليزابث»، فجذبَ أنظارهَا بحركةٍ يُقال إنها كانتِ السببَ فى تقريبـهِ إليـها وإيثـارهِ بمحَبتـها. فقـد

---

(١) خَرَّ صَرِيعًا: قُتِلَ.

رَووا أنَّ الأرضَ هنا كانت مُوحلة فى بعضِ طريقِ الملكةِ، فَخَلَعَ الشابُّ الوسيمُ الأنيقُ عباءتَه المصنوعةَ من أفخرِ أنواعِ المخملِ «القطيفة»، وطرحها عَلى الوحلِ لتمشى عليها الملكةُ، اتقاءً لقدميها منْ أوحَالِ الطريقِ !!

ويصدقُ المؤرخونَ هذه الروايةَ، ولا يجدونَ فيها ما يتعارضُ مع مزاجِ ولتر ونَفْسيته، التى كانت تلتمسُ الشهرةَ والحظْوَةَ والوصولَ منْ أىِّ طريقٍ !

ويصورُ المؤرخونَ «ولتر رالى» فى الوقتِ الذى اتصل فيه بقصرِ الملكةِ «إليزابث» بصورةٍ فاتنةٍ تسترعى الأنظار. فهو فَتًى دونَ الثلاثين، طويلُ القامةِ، متينُ البنيةِ، حُلو المحضرِ، مجعدُ الشعرِ أسْود، ناعمُ البشرةِ. وكانَ يبدُو فى ثيابٍ فَخْمة، ينفقُ بسخاءٍ كبيرٍ على اختيارها، ويتأنقُ فى نقشها وتطريزها. وكانت عِبَاراته دائمًا تنطقُ بالحيويةِ النابضةِ، والقوةِ المعبرةِ، والاعتزاز بالنفسِ، والصوابِ فى الرأى، والصدقِ فى التعبيرِ.

وقد سبقته الشهرةُ إلى سمعِ الملكةِ قبل أن يَرَاهُ بصرُهَا. فقد اشتهرَ بالجرأةِ والإقدامِ، والحذقِ والذكاءِ، والشجاعةِ فى الميادينِ وفى المجالسِ على السواء. وكانَ يقُوده فى الحياةِ قلبٌ جَرِىءٌ، ورأسٌ سَليم.

وأخذَ نجمُ الفتى الجديد يلمعُ فى بلاطِ الملكة ويزدادُ كلَّ يومٍ تألقًا. وكانت مَشُوراته فى مَسَائل إيرلندة وقضيتها موضعَ الاعتبار، وقد أذنَ له مكانُ الحظوةِ فى قصرِ الملكة «إليزابث» بأن يكونَ ممثلا فى مناصبَ كثيرةٍ وفى وظائفَ متعددةٍ. وصارتْ هذه المناصبُ تدرُّ عليه طائلَ الأموالِ، وواسعَ الثراءِ، وعظيمَ المرتباتِ، حتى انتقلَ دفعةً واحدةً وفى زمنٍ وَجيزٍ من سيدٍ متوسطِ الحالِ إلى واحدٍ من أوسعِ الإنجليز غنىً وأكثرهم ثراءً.

وكان نظامُ الاحتكار والامتياز هو سبيلُ الغنى الفاحِش فى تلكَ الأيامِ، وكان نصيبُ «ولتر» من ذلكَ أكبر نصيبٍ، حتى بلغَ دخلُه من

امتياز الخمور وحدّها ألفى جنيه فى العامِ، وهو مبلغٌ عظيمٌ فى حسابِ ذلكَ الزمانِ.

ولم يتقاطرِ[1] المالُ والغنى وحْده على هذا النجمِ الجديدِ، بل أخذتْ ألقابُ التشريفِ ووظائفِ التكريمِ تنهالُ عليه. ففى سنة ١٥٨٤ أنعمت الملكةُ عليه بلقبِ سير (Sir). وفى سنة ١٥٨٥ عُين قيما وحارسًا على المناجمِ فى مُقاطعتى «ديفون» ، و«كورنوال» ، كما خلعَ عليه فى العام نفسِه لقب «لورد إقليم كورنوال» ونائب أميرِ البحرِ للمقاطعتيْن المتجاورتيْن.

وشهدتْ سنة ١٥٨٦ السير «ولتر رالى» فى لقبهِ الجديدِ وهو يجلسُ تحتَ قبةِ مجلسِ النواب الإنجليزى نائبًا عنْ مقاطعةِ ديفونشير، كما شهدتْ تلكَ الهبةَ السخيةَ العظيمةَ التى خلعتها عليه الملكةُ، بمنحِه أرضًا واسعةً ومراعى كثيرة فى «إيرلندة»، اعترافًا بما أبداهُ من شجاعةٍ فى إخمادِ الثورةِ فيها ! ولكنَّ الأرضَ الزراعيةَ الشاسعةَ تحتاجُ إلى القصور لكى تقومَ فيها، وإلى الدور تتناثرُ فى أرجائهَا، وهنا بدأ السير ولتر يَبْنِى البيوتَ الكثيرةَ والقصورَ العظيمةَ.

وقد أبَى الحظُّ السعيدُ إلا أن ينهمرَ انهمارًا على الشابِّ المغامرِ البعيد الآمال. ففى سنة ١٥٨٦ أيضًا عُين«ولتر» ضابطًا فى الحرسِ الخاصِّ للملكةِ، وهو مَنْصِبٌ أتاحَ له دائمًا أن يكونَ قريبًا مِنْ

---

(١) تقاطرَ المالُ: تتابعَ.

«إليزابث»، كثير الاتصالِ بها، دائم الحضور فى مجلسـها. وهنا أخـذتِ الهباتُ العريضـةُ تنـهالُ عليـه، فمنـحَ أرضًـا واسـعةً فـى مقاطعـاتِ «لنكولنشير» و «دربيشير» و«نوتنجهامشير» وغيرها.

ومنَ الحقِّ أنْ يقالَ إنَّ إدارةَ السير «ولـتر رالى» للمناجمِ الجنوبيـةِ وتشريعاتِهِ القضائيةِ لهـا بـدأتْ عـهدَ إصـلاحٍ وإنعـاشٍ لهـذِهِ المصـادر الغنيـةِ بـالثروةِ، وقـد بقيـت القواعـدُ والأصـولُ التِـى وضعـهَا لهـذِه المناجمِ مُتبعة بعدَه بزمنٍ طويلٍ.

## أرض جديدة باسم الملكة

كانت ميول السير «همفرى جلبرت» - أخو «ولتر رالى» غير الشقيقِ - إلى الكشوفِ وارتيادِ العوالمِ الجديدةِ، سببًا فى إثارةِ «ولتر» وتوجيهِ اهتمامهِ إلى البحثِ عنْ آفاقٍ جديدةٍ، يضعُ يده عليها باسم الملكة «إليزابث» .

ففى سنة ١٥٨٣ قامَ «جلبرت» بمشروعِ رحْلته إلى «نيوفوندلاند» عَلى الشاطئ الشرقى لأمريكَا الشمالية لكى يسْتولى عليها باسمِ ملكة الإنجليز.

والحقُّ أنَّ الإنجليزَ كانُوا يتحرقونَ شوقًا إلى استعمار هذهِ الأقاليمِ الواسعةِ من أمريكا الشمالية، بعدَ أن رأوا توسع الأسبانِ فى الاستعمار إلى حدٍّ بعيدٍ !

ولعلَّ «كابوت» (Cabot) الجنوى الأصل، البريطانى الإقامةِ والتجنس، هو أولُ منْ ذكرَ الإنجليزَ بارتيادِ أمريكا الشمالية فى أُخرياتِ القرنِ الخامسِ عَشَر، وبعدَ اكتشافِ «كُولمبوس» لأمريكا ببضعِ منَ السنينَ.

ولكنَّ الإنجليزَ شُغلوا عنِ استعمار أمريكا أقلّ منْ قرنٍ منَ الزمانِ، لأنهم لم يستطيعُوا مُجَارَاةَ الأسبانِ فى ذلكَ الميدانِ. فقد

وَصلَت أسبانيا فى السيادةِ الاستعماريةِ والكشوفِ والفتوحِ الجديدةِ إلى حدٍّ أصبحَ معه «فيليب الثانى» - ملك أسبانيا والبرتغال فى عصرِ «ولتر رالى» -سيد العالم فى البرِّ والبحرِ، حتى كانَ الناسُ يقولونَ: «إذَا تحركَت أسبانيا اهتزَّ لَهَا العالمْ» .

وقد أثارتْ هذه السيادةُ الاستعماريةُ العظيمةُ للأسبانِ حقدَ بقيةِ الدولِ الأوربيةِ عَليهم، وانتهازهَا الفرصَ لهم، وتربصهَا الدوائرَ بهم. حتى كانَ القراصنةُ ولصوصُ البحار ومُهربو البضائعِ منَ الإنجليزِ والهولنديين والفرنسيين ينهالونَ فى غاراتٍ خاطفةٍ على شواطئ الممتلكاتِ الأسبانيةِ لنهبِ السفنِ، وتخريبِ الثُغُور.

خرجَ السير «همفرى جلبرت» بدافعِ التوسعِ والفتحِ ليضمَّ إلى ممتلكاتِ التاجِ البريطانى أرضًا جديدةً، ولينتزعَ منَ «الدنيا الجديدة» أكبرَ مَا يمكنُ أن يَنْتزعَهُ منَ الأرضِ ليضمَّهُ إلى أملاكِ الإنجليز. ولم يكُنْ السير «ولتر رالى» أقلَّ همةً ولا رغبةً فى التوسعِ والاستعمار عن أخيهِ غيرِ الشقيقِ. فأعدَّ لذلكَ الغرض سفينةً حمولتها مائتان منَ الأطنان، وبناهَا من مَاله الخاصِّ، وسمَّاها «بارك رالى»، ونَوَى أن يتولَّى قيادتهَا بنفْسِه. ولكنَّ الأوامرَ صَدَرت إليه من الملكة «إليزابث» بأن لا يبرحَ البلادَ.

وإذا كنا نحنُ الآن فى معرضِ الحديثِ عن السيرِ «ولتر رالى» فليسَ هناكَ من بأسٍ أنْ نعرفَ مصيرَ هذه الرحلةِ الكشفيّةِ التى قامتْ تحتَ قيادةِ السير «همفرى جلبرت». لقد وصَل الكاشف المغامرُ إلى شاطئِ «نيوفوندلاند»، ولكنَّ التجّارَ، وصائدِى الأسماكِ هناكَ مَنَعُوهُ منْ دخولِ الميناءِ. ولما أبرزَ لهم الأوراقَ الرسميةَ التِى تُخَوله القيامَ بهذه الرحلةِ أذِنوا لسُفنه بدخولِ الميناء، وأمدُّوه بما يحتاجُ إليه منَ الماءِ العذبِ والمؤنِ ومقوماتِ الحياةِ. واسْتمتعَ «همفرى» فى جزيرةِ «نيوفوندلاند» أيامًا بهوائها المعتدلِ، وجوهَا اللطيف، وفاكهتها الطيبةِ، ومناظرهَا الخلابةِ.

ثم شدَّ الرحالَ نحوَ الجنوب، ولكنَّ البحارةَ ثارُوا عليهِ لأنه منعهُمْ من القرصَنةِ والتلصُّصِ فى البحَار، والغارةِ على السفنِ، وقد حَاولوا خيانته وأضْمَروا له السوءَ، فاضطرَّ إلى إعادةِ المتمردينَ إلى إنجلترا،

واكتفى هو بالتجوالِ فى المياهِ الجنوبيةِ بثلاثِ سفنٍ غرقَتْ إحْدَاهَا، وكانت تحملُ المؤنَ، كما غرقَ معظمُ بحّارته. فاضطرَّ إلى العودةِ إلى وطنهِ مُصمماً أن يعودَ إلى العالمِ الجديدِ فى العامِ التّالى، ولكنَّ العواصفَ قابلته فى طَرِيقه بعدَ اجتيازه جزائرِ الأزور، فغرقتْ سَفِينَتُهُ بكلِّ منْ فيها من رجَالٍ وَمَتَاع. وذهبَ هو إلى أعماقِ المحيطِ يحملُ فى ثنايَا اللَّجَجِ[1] قصةَ البطولةِ والجهادِ والاستشهادِ، فى سبيلِ البلادِ..

ما كانَ ذلكَ الحَادثُ الأليمُ للسير «همفرى جلبرت». سبباً فى أن يثبِّطَ عزيمةَ أخيهِ المغامرِ السير«ولتر رالى»، أو يصدّه عن غَرضِه فى التوسعِ والارتيادِ. فبعدَ غرقِ «جلبرت» استصدرَ السير «ولتر رالى» امتيازاتٍ من الملكةِ «إليزابث» تُبيحُ له القيَام برحلةٍ إلى ما وراءَ المحيطِ الأطلسى، لاستكشافِ أراضٍ مجهولةٍ وامتلاكهَا باسمِ أميرة البلادِ ..

ولم تتردد الملكةُ المتطلعةُ إلى التوسعِ والامتلاكِ فى إعطاءِ السير «ولتر رالى» الامتيازَ الذِى يَطْلبه، ففى يوم ٢٥ مارس سنة ١٥٨٤ كانَ الامتيازُ تحتَ يدِ الرجلِ الطموحِ. وفى شهرِ إبريل أرسلَ حملةً أوليَّةً تحتَ قيادةِ «فيليب أماداس» (Philip Amadas) و«أرثر بارلو» (Arthur Barlowe) ومضتْ هذِه الحملةُ الكشفيَّةُ خِلالَ الطريقِ الجنوبى الموصل إلى جزرِ الهندِ الغربية، ومنها اتجهَ رجالُها شمالاً إلى شبهِ

---

(١) اللَّجَج: الهَمُّ والنزاعُ.

«جزيرة فلوريدا» فى أمريكا الشمالية ثم سَاروا شمالاً حتى بلغُوا رأسَ هاتراس (Cape Hatteras) جنوبى مدينة «واشنجتون» الحالية، ومنْ هنَا اسْتمروا شمالاً حتى بلغُوا خليجَ «أورجون» (Oregon) واستولُوا على هذِه الرقعةِ باسم الملكة «إليزابث» !

ولما عادَ أفرادُ هذِه الحملةِ إلى إنجلترا وأخبروا الملكةَ العذراءَ[1] «إليزابث» بنبأ هذِه المستعمرة الصغيرةِ الجديدةِ التى أصبحَت لؤلؤةً جَديدةً فى تَاجِهَا، خَلعت الملكةُ عليها اسم «فرجينيا»، وهو ذلكَ الوصفُ الذِى كان يقترنُ دائمًا باسمِ الملكةِ «إليزابث» العذْرَاء.

ذلكَ هو التفسيرُ الحقيقى لتسميةِ هذِه البقعةِ من أرضِ العالمِ الجديدِ باسمِ «فرجينيا» ، أو هو تفسيرٌ أقربُ ما يكونُ إلى الحق. عَلى أنَّ هناكَ مَنْ يزعمُ أنَّ لفظةَ «فرجينيا» هى تحريفٌ لكلمةِ «فنجينا» (Vingina) وهو اسم ذلكَ الرئيسُ الهِندى الذِى سُميت هَذِه الأرضُ باسمه.

---

(١) العذراء: البكْرُ.

# أول مستعمرة إنجليزية
# فى العالم الجديد

ظلّت فكرةُ إنشاء مُستعمرة إنجليزية فى أمريكا الشمالية حلمًا لذيذًا يحرصُ السير «ولتر رالى» عَلى تحْقيقه، والآن وَقَدْ كشَفت رحلةُ «فيليب أماداس، و«أرثر بارلو» عنْ تلكَ الرقعةِ الكبيرةِ الممتدةِ عَلى طُول الشاطئ الشرقى والتِى سُميت باسمِ «فرجينيا»، فلماذا لا تُنشأ بها مستعمرةٌ إنجليزية؟ ولماذا لا يحملُ إليها بعضُ المستعمرينَ الأولينَ مِنَ الإنجليز؟

وحرصَ السير «ولتر رالى» عَلى أن يذهبَ هذِه المرة بنفسِهِ ومعه أوائلُ المهاجرينَ المستعمرينَ، ولكنَّ الملكةَ لم تأذنْ له، وتركتْ له أن يختارَ من قوادِ الرحلةِ منْ يشاء، ممن يعتمدُ عليهم فى مثلِ هذِه الشئُون.

وفى شهر إبريل سنة ١٥٨٥ أبحرت الحملةُ من ميناء «بليموث» تحتَ قيادةِ السير «ريتشارد جرنفيل» (Richard Grenville)، وهو رجلٌ جرىءُ القلبِ، كثيرُ المخاطرةِ، من أهل مقاطعة «ديفونشير» ومن أقاربِ السير «ولتر رالى» المقربين، وأسندتْ حكومةُ المستعمرة إلى «رالف لين» (Ralph Lane) وهو من أهل ديفون: موطن «رالى».

وكانَ فى الحملةِ أيضًا بضعةٌ منَ الأسماءِ اللامعةِ فى التاريخِ الإنجليزى منْ أمثالِ «توماس هاريوت» (Thomas Harriot) أحدُ العلماءِ البارزينَ فى عَصْرِه، و«توماس كافنديش» (Thomas Cavendch) ثانِىَ اثْنيْنِ منَ الإنجليزِ طافًا حولَ العالم، أولهما السير «فرنسيس دريك» (F. Drake) الذِى أتمّ طَوافه حولَ الدنيا فى نوفمبر سنة ١٥٨٠. وفيليب أماداس الذِى خرجَ مع «أرثر بارلو» قبلَ ذلكَ فى الرحلةِ التمهيديةِ الأولى إلى فرجينيا كما سبقَ القول.

ووضعَ السير «ولتر رالى» بنفسِهِ أصولَ الحكمِ فى هَذه المستعمرةِ الجديدَةِ، وحدّدَ لها منَ النظمِ والقواعدِ ما يضمنُ نموهَا وبقاءَ هَا. ولكنَّ المنازعاتِ وشهواتِ النفوسِ والخصوماتِ، بدأتْ تستَعِرُ بينَ «رالف لين» والسير «ريتشارد جرنفيل» منْ ناحيةٍ، وبينَ المستعمرينَ الإنجليزَ وأهلَ البلادِ الوطنيينَ منْ ناحيةٍ أخرى.

وكانَ طبيعيًّا أن تنتهى هَذِه الخصوماتُ والمناوشاتُ[1] إلى إخفاقِ مشروعِ المستعمرةِ الإنجليزيةِ فى فرجينيا بأمريكَا الشمالية. ولم يطلْ بقاءُ الإنجليزِ فى هذِه المستعمرةِ الناشئةِ أكثرَ منْ عامٍ واحدٍ وشهرينِ اثنين، ففى يونيو سنة ١٥٨٦ أخليت المستعمرةُ من سكانهَا الجديدينَ ومهاجريهَا الأوّلينَ. وجَاءت السفنُ تحملُ المستعمرينَ ثانيةً إلى وطنهم إنجلترا تحتَ قيادةِ السير «فرنسيس دريك»، الذِى كُلِّفَ بهَذِهِ المهمةِ ليضمنَ سلامةَ العائدينَ!

---

(١) تناوَشَ القَوْمُ: تناول بعضُهُم بعضًا.

وبينما المستعمرونَ فى طريقِ عَودتهم إلى وَطنهم، كانَ السير «ولتر رالى» حريصًا على تعزيزِ الحملةِ التى أرسلهَا تحتَ قيادةِ السير «ريتشارد جرنفيل» لِتَثْبيتِ قدمِ المستعمرينَ. وكانَ «ريتشارد» فى إنجلترا فى ذلكَ الحينِ، فكلَّفه رالى أن يرجعَ إلى فرجينيا مع عددٍ منَ المستوطنينَ، ومعَ قدرٍ كبيرٍ منَ الإمداداتِ والمئونةِ التى يحتاجونَ إليها فى الموطنِ الجديدِ! وما كانَ أشدَّ دهشةَ السير «ريتشارد» حين رأى المكانَ مهجورًا خاليًا منَ المستوطنينَ الإنجليز الذينَ كان البحرُ يَحْمِلهم فى هذِه اللحظةِ إلى وطنهم تحتَ قيادةِ السير «فرنسيس دريك» !

وهنَا لم يجدْ السير «ريتشارد» داعيًا للبقاءِ فى مستعمرةٍ جديدةٍ هجرهَا مُنْشِئُوهَا، وتركهَا مُستوطنوهَا، فعادَ إلى إنجلترا تاركًا خمسةَ عَشَرَ مِنَ الرجالِ فقط فى موضعٍ يُسَمَّى «رونوك» (Roanoke) .

***

لم يكنْ إخفاقُ هذِه الحملةِ لينزعَ الأملَ منْ قلوبِ الإنجليزِ فى استعمار أمريكا الشمالية، أو على الأقل، فى إنشاءِ مستعمرةٍ فى أرضِ «فرجينيا» التِى كانت تمتدُّ عَلى الشاطئ الأمريكى الشرقى، من شبهِ جزيرة «فلوريدا» فى الجنوب، إلى جزيرة «نُيُوفوندلاند» فى الشمال.

ولم يتسرب اليأسُ لحظةً إلى نفسِ السير «ولتر رالى» الذِى كانَ يحلُمُ دائمًا بإنشاءِ مستعمرةٍ إنجليزيةٍ فى أرضِ العالمِ الجديدِ !

ففي الصيفِ من سنة ١٥٨٧ أعدّت حملةٌ كشفيةٌ استعماريةٌ تحتَ قيادةِ «جون هويت» (John White) وهو ملاحٌ إنجليزيٌّ عُرِفَ بحبِّ المغامراتِ ولكنه لم يُعرف بحسنِ الاحتيالِ وتَصْريفِ الأمور.. فلم تكَد المؤنُ والزادُ يَنْفُدُ منه حتى أسرعَ بالعودةِ إلى وطنهِ تاركًا وَرَاءَه تسعةً وثمانينَ منَ الرجالِ وسبعَ عَشْرَةَ امرأةً، وابنته الشابةَ الصغيرةَ وطفلتهَا الصغيرةَ التِى كانت أولُ إنجليزيةٍ تَرى الحياةَ عَلى التربةِ الأمريكية[1].

وفى الربيعِ التَّالِى أعدَّ السير «ولتر رالى» سَفِينتيْنِ مُلاَئمتينِ بناهمَا بمالِهِ الخاصِّ، ورصدَ لهمَا مبلغًا معينًا للقيامِ بحملةٍ لارتيادِ الشاطئِ الشرقى لأمريكا الشمالية وإنشاءِ مستعمرةٍ إنجليزيةٍ فيه، ولكنَّ ربابنةَ الحملةِ وملاحيهَا حَوَّلُوا أغراضَ الحملةِ إلى أهدافٍ حربيةٍ عَسْكريةٍ، لمطاردةِ سفنِ الأسبانيينَ فى المحيطِ وشنِّ الغارةِ عليها ومصَادرةِ حمولاتها. وبعدَ الاشتراكِ فى بعضِ الغاراتِ والحملاتِ عادت الحملةُ إلى إنجلترا، دونَ أن تحقّقَ غرضَ السير«ولتر رالى» مِنْ إنشائهَا وقيامهَا.

وظلَّت الجماعةُ التى تركهَا «جون هويت» على الساحِلِ الشرقى لأمريكا الشمالية - بعدَ نفادِ مَئُونته وعَوْدته إلى وَطَنه - شُغْلَ إنجلترا كُلَّهَا، وشغلَ السير «ولتر رالى» الشَّاغل إلى حَدٍّ كبير. وظلَّ الرجلُ يسائلُ نفسَه: ما مصيرُ هؤلاءِ المستوطنينَ؟ وما علاقاتهم معَ

---

(١) سميت هذه الطفلة باسم فرجينيا بمناسبة مولدها فى ذلك الإقليم!

الهنودِ الوطنيينَ؟ ومَا هو نوعُ الحياةِ التى اتخذوهَا فى الموطنِ الجديدِ؟ ومَاذَا بقى لهم فى مُستعمرتهم الجديدةِ منْ علاقاتٍ وصلاتٍ مَعَ مَوْطنهم القديمِ؟

منْ أجلِ هذَا أرسلَ السير «ولتر رالى» فى سنة ١٥٨٩ نجدةً جَاءت فى الحقِّ متأخرةً عَنِ الموعدِ الذِى كانَ يجبُ أنْ تكونَ فيه. وَذَهبت النجدةُ برجالهَا إلى المكانِ الذِى تركَ فيه «جون هويت» مرافقيه من الرجالِ والنساءِ والأطفالِ فَلَمْ يجدُوا وَاحِدًا مِنْ هؤلاَءِ المستوطنينَ، ولم يقفُوا لهم عَلى أثرٍ!

ولما رأى «ولتر رالى» إلى أنه أنفقَ ما يقربُ منْ أربعينَ ألفَ جنيه فى البحثِ عَنْ مستعمرةٍ لم يكنْ لها وجودٌ وجدُ نفسَه مضطرًّا إلى أن يُرْجِىء مشروعَ إنشاءِ مستعمرةٍ إنجليزيةٍ فى أمريكَا بعضَ الوقتِ .

ولكنَّ الفكرةَ ظلَّت تُعَاوده منْ حينٍ إلى حينٍ، وتلحُّ عليه أن يقومَ هو بتحقيقهَا، فأخذَ يرسلُ حملاتٍ كشفيةٍ واحدةٍ تلوَ أخرى إلى فرجينيا، وكانَ آخرها سنة ١٦٠٣.

ولكنَّ فشلَ «ولتر رالى» السريع فى ذلكَ العامِ نفسِه قد وضعَ حَدًّا لفكرةِ المستعمرةِ الإنجليزيةِ، وَسَحْب الامتياز الذِى كانَ يخولُ «رالى» حقَّ البحثِ عن أرضٍ جديدةٍ فى أمريكا للمستوطنينَ الإنجليزَ، وعادت حقوقُ هذَا الامتياز إلى التاج البريطَانى، حيثُ تعطَّلَ المشروعُ إلى حينٍ.

هكذا سجلَ التاريخُ للسير «ولتر رالى» جُهُوده الدائبةَ المضنيةَ التِى كلّفته غَالِيًا فى سبيلِ إنشاءِ أولِ مستعمرةٍ إنجليزيةٍ بأمريكا الشمالية، ولا يذكرُ تاريخُ الاستعمار البريطانى فى شمالِ العالمِ الجديدِ إلاَّ ذُكرَ معه على الفور اسم «ولتر رالى» ، الذِى لم يدخرْ جُهْدًا ولا مالاً فى سبيلِ غرضٍ لم يكنْ له يدٌ فِى إخْفَاقه.

ومهمَا كانت نتائجُ الحملاتِ التى بعثها «ولتر رالى» وعَادت بغيرِ نجاحٍ، فإنَّ نصيبَه لا يجبُ أنْ يُنسى كأولِ رائدٍ إنجليزى، نَبَّهَ أذهانَ الإنجليزِ إلى ضرورةِ إقامةِ «إنجلترا أخرى» وراءَ البحار.

وأغربُ ما فى تاريخ هذا الرائدِ الأولِ للاستِعمار الإنجليزى فى العالمِ الجديدِ، أنه لم يشتركْ بشخصِه فى واحدةٍ منَ الحملاتِ التى أرسلهَا تباعًا وعَلى نفقتهِ الخاصَّةِ إلى سَوَاحِلِ أمريكا الشرقية، بلْ لم يكنْ فى خلالِ حَيَاته كُلِّها عَلى مقربةٍ منْ شَوَاطئ فرجينيا بأمريكَا الشمالية!

ولم تغْب عنْ بالِ «ولتر رالى» - لحظةً - فكرةُ استعمار العالمِ الجديدِ، حَتَّى وهو فى أحْرَجِ سَاعَاته! ففى خلالِ عودته من رحْلته بعد ذلكَ إلى أمريكا الجنوبية - التِى سنتحدثُ عنها فيما بعد - أبدَى رغبةً ملحةً فى الصعودِ شمالاً نحوَ أمريكا الشمالية، ليمتعَ نظرهُ بأرضِ «فرجينيا» التِى كانتْ حُلْمه اللَّذِيذ زمانًا طويلاً. لولاَ أنه عدَّل عنْ ذلكَ لأنَّ الفصلَ لم يكنْ مُلاَئمًا، والرياحَ لم تكنْ مُوَائِمَةً ..

وفى خلالِ سجْنه فى «برج لندن» (The Tower of London) فِى عهدِ الملكِ «جايمس الأول» الذى خلفَ الملكة إليزابث، احتالَ عَلى سَجَّانيه وحُرَّاسه لكى يوصِّلوا رسالةً منه إلى الملكةِ «آن» زوجة «جايمس»، يلتمسُ فيها أنْ تُعينه عَلى الإذْنِ له بالرحيلِ إلى مستعمرةِ «جايمس تاون» (James Town) التِى أنشأهَا حديثًا جماعةٌ منَ المستعمرينَ الإنجليزِ فى عهد الملكِ «جايمس» .

وفى خلالِ عَوْدته من رحْلته الكشفيةِ الأخيرةِ إلى أرض «إلدرادو الخيالية» بأمريكَا الجنوبية - كما سَيَجىء - لم تمنعْه مخاوفُه وآلامُه النفسيةُ الكثيرةُ منْ أنْ يمرَّ عَلى شواطئ «فرجينيا»، لولاَ ثورةُ البحَّارة عليه. وكانت أُمنيته هذِه المرةِ أنْ يَرَى بعينهِ مَدَى ما بلَغه الاستعمارُ الإنجليزِى على الشاطئ الشرقى لأمريكَا الشمالية..

ولم يفقدْ ذلكَ الملاحُ والقائدُ العنيدُ الأملَ الحارَّ القوىَّ فى نجاحِ فكرةِ استعمار إنجلترا لأمريكا الشمالية، تلكَ الفكرةُ التى عَبَّر عنها بهذِهِ العبارةِ المأثورةِ: «سأعيشُ مع ذلكَ حتى أراهَا أمةً إنجليزيةً» ! .

ولعلَّه من المفيد الطريفِ هنَا، أنْ نذكرَ فى كلمةٍ قصيرةٍ مَصِيرَ المستعمرةِ الصغيرةِ التى تركهَا «جون هويت» عَلى شاطئ «فرجينيا» حينما نفدَت مَئُونَتُهُ كما سلَفَ القولُ. تلكَ المستعمرةِ التى كانَ قوامُهَا تسعةً وثمانينَ رجلاً، وسبعَ عشرةَ امرأةً، وطفلةً وليدةً على أرضِ «فرجينيا» سُميت باسمها ! إنَّ مصيرَ هذِه الجماعةِ الضَّالةِ

التائهةِ لا يـزالُ غـير معـروفٍ عَلـى وجْـه التحْقِيـقِ. ولقـد حَـاول «جون هويت» نفسُه حينما عَاد فـى حمايـةٍ للبحـثِ عَـنِ التائـهينَ أن يتبعَ آثارهم داخلَ الأرضِ الأمريكيةِ، فلم يظفرْ بطائلٍ، كما حـاول «جون سميث» وزملاؤهُ هذِه المحاولةَ نفسَهَا سنة ١٦٠٧ فلم يعُـودُوا مـنَ السعيِ بنتيجَةٍ!

واستنتجَ الباحثونَ أنَّ هؤلاءِ المستعمرينَ الأولينَ قد اختَفُـوا مـن الوجودِ، لأنهم وقعُوا ضحايَا لغضبِ الهنودِ الحمرِ عَلَيـهم وغَدْرهـم بهم.

وأخذتْ أحاديثُ الرواةِ تتوالَى علـى مـدَى القـرونِ بعـدَ ذلـكَ بـأنَّ هـؤلاءِ المسـتعمرينَ الأولـينَ تـاهُوا فـى مسـاربِ[1] الجبـالِ ومـهابطِ الأوديَةِ، حتى بلغُوا الشاطئَ الغربـى لأمريكـا الشـمالية.. ويؤيـدونَ هذِه الروايةَ بأنَّ عالمًا محققًا - من سِتينَ عامًـا - وصـفَ قبيلـةً باقيـةً من الهنودِ يتكلمونَ الإنجليزيةَ بطلاقةٍ وسـلامةِ نطـقٍ، وذكَـر أنَّ آباءَ هم يعتقدونَ أنهم انحدَرُوا من سلالَةٍ مستعمرةِ «ولتر رالى» الضَّائِعَة!

ولعلَّ أقوى الأسبابِ فى إخفـاقِ مشـروعِ اسـتعمار فرجينيـا هـو «ولتر رالى» نفسُه! فإنَّ أكبر اللـومِ عَـائد عليـه، ورَاجِـع إليـه. وأكـبر أخطَائه أنه لم يشتركْ بشخْصِهِ فى الحملاتِ التى أعدهَا بمالِهِ وبجـهدِهِ وبنفوذِهِ للمشروع. ولا نستطيعُ أنْ نجزمَ ماذَا كان يستطيعُ أن يفعلَ

---

(١) المسْرَبْ: الطَّريق. والجمع مَسَاربُ.

أو يحرزَ منَ النجاحِ، لو أنه شاركَ بشخْصيهِ فى الحملات والرحلاتِ المتعددة إلى هَذِه الأرضِ المرجُوَّة ؟ ولكنْ ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ التأثيرَ الذِى تَتْركه شخْصيتُهُ القويةُ فى نفوسِ البحَّارةِ والرفَاقِ والروَّادِ، وأن ذَكَاءَه الحادّ القوِى، ومضَاءه فى تصريفِ الأمور وحَلِّ المشكلاتِ، كانَ يمكنُ أن يتغلَّبَ علَى مصاعبِ الطريقِ، ويزيحَ كثيرًا منَ العقباتِ .

فقد كان منَ السهل عليه - لو أنه اشتركَ بنفسِهِ معَ المتوطنينَ الأولينَ منَ الإنجليز - أن يقيمَ علاقةً مع الهنودِ الحمرِ على أحْسَنِ الأسس، وهو رجلٌ بارعٌ فى تحسينِ العلاقاتِ، وإقامةِ المودَّاتِ! كما صنعَ هو بنفسِهِ فى أرضِ جيانة (Guiana) بأمريكا الجنوبية حينما ذهبَ إليها سنة ١٥٩٥ باحثًا عن الذهبِ الكثيرِ.

لقد نجحَ الرجلُ فى علاَقاته الطيبةِ مع هنودِ أمريكَا الجنوبية، وساعدُوه على نجاحِ رحْلته الكشفيةِ التى سيأتِى حَديثُها فى فصْلٍ قادمٍ، ولهذا كانَ من الممكنِ أن ينجحَ فى علاقته مع هنودِ فرجينيا بأمريكا الشمالية، لو أنه كلَّفَ نفسَه مرةً واحدةً أن يحطَّ فيها الرحالَ، أو يشدَّ إليها الركابَ !

ولو أنه بذلَ منَ الجهدِ بشخصيهِ ونشاطِه الذاتى قدرَ مَا بذلَ من المالِ الكثيرِ فى سبيل فكرةِ استيطانِ أمريكا بالإنجليز، فقد كانَ من الممكنِ جدًّا أن يكونَ أعظمَ رجلٍ سَاهمت به إنجلترا فى التاريخِ الأمريكى. ومع ذلك فإن يدَه التى أسداهَا إلى استيطانِ الإنجليز بأمريكا الشمالية لا ينكرهَا إلا جَاحِد ...

ومنَ المؤكدِ أنَّ السير «ولتر رالى» - فى ضميرِ مُعَاصِريه من كبار الملاحينَ والروّاد - كانَ أكثرهُم استحقاقًا لأن يلقبَ بلقبِ حَامِى الروّاد، ونصيرِ الرحالةِ والمكتشفينَ.

ولعل أكثرَ المنصفينَ والمقدرينَ لأعمالِ السير «ولتر رالى» فِى سبيلِ الكشوفِ والحملاتِ الاستكشافيةِ، وتنبيهِ الإنجليز إلى قيمَةِ العالمِ الجديدِ كموطنٍ جديدٍ مُلائمٍ للاستعمار الإنجليزى، هو الأديبُ المؤلفُ والمؤرخُ الناشرُ «ريتشارد هاكلويت»، الذِى كتبَ كثيرًا عن رحلاَتِ الإنجليز فى القرنينِ السادسِ عشرَ وأوائلِ السابعِ عَشَرَ، والذِى صنعَ ما لم يَصْنعه عَشَرات الكتابِ الإنجليزِ فى إيقاظِ الوعيِ نحوَ فِكْرةِ استيطانِ العالمِ الجديدِ .

لقد أشادَ هذا المؤرخُ المناصرُ للرحلاتِ بأعْمَالِ السير «ولتر رالى» ، وكانَ الرجلانِ مُتَعاصرين، وكثيرًا ما أبدَى المؤرخُ إعْجابه بشخصيةِ « رالى» وأخلاقِه المتينةِ، وعَبَّر عنْ ذلكَ فِى كتابَاته الكثيرةِ التِى تُعد مصدرًا من مصادر التأريخِ للكشوفِ الإنجليزيةِ فى ذلكَ الحينِ .

ومنَ الحقِّ أنْ نقولَ إنَّ كتاباتِ «هاكلويت» الأدبيةِ عنِ الرحلاتِ والاستكشافِ بصفةٍ عامةٍ، وعنْ جهودِ « رالى» فى ذلكَ الميدانِ بصفةٍ خاصةٍ، تُعد قطعًا رائعةً فى الأدبِ الإنجليزى، كما تُعد ثروةً عظيمةً فِى التاريخِ الإنجليزى، وقد طُبعت لأولِ مرةٍ فى عصرِ المؤلفِ نفسِه وفى عصرِ « رالى» سنة ١٥٨٩، فتهافتَ الناسُ عليها تهافتًا لَمْ يُعهد قبلَ ذلكَ

فى كتابٍ مطبوعٍ، وكانَ سرُّ النجاحِ يكمنُ فِى أسْلُوبها، وطَرِيقتها الفاتنةِ فى السردِ منْ ناحيةٍ، وفى إثارتهَا عواملُ التشويقِ للاكتشافاتِ والرحلاتِ البحريةِ، التى أرضت الرأىَ الإنجليزى العام، من ناحيةٍ أُخرى.

وكثيرًا ما كانَ السير «ولتر رالى» يقصُّ على «هاكلويت» أخبارَ هذِه الرحلاتِ وروَاياتها العجيبةِ المثيرةِ بنفسِه، وكان المؤلفُ يحرصُ على أسلوبِ «ولتر رالى» لأنه أسلوبٌ أدبى رفيعٌ. فقد أُوتى «ولتر رالى» منَ البيانِ وحلاَوةِ التعبيرِ وخصوبةِ الخيالِ الشعرِى، ما جَعَله ممتاز المكانةِ فى تاريخِ الأدبِ الإنجليزى، ولذلكَ موضعٌ سنتحدثُ عنه بعدَ قليلٍ.

# أول مدخن عند الإنجليز

حِينما نَرى كثرةً منَ الناسِ يقبلونَ على تدخين التبغِ أو الطباقِ، بصورةٍ أصبحتْ بدعةَ العصرِ بينَ الشبابِ والشيوخِ، أو بينَ الرجالِ والنساءِ عَلى السواءِ، وحينَ نَرى الأصابعَ تعبثُ بلفافةِ التبغِ فى يدِ المدخِّن، والدخانُ يتصاعدُ منْ فمهِ أو منْ لفافتهِ ويتحلَّقُ فى الهواءِ عَلى هيئةِ دوائرَ.. فيعقدُ سحابةً رقيقةً من دخانٍ مَنْفُوث.. وحينَ نَرى بصيصَ اللفافةِ أو «البيبَةِ» يلمعُ فى الضوءِ الخافتِ كجَذْوَةٍ[1] منْ لهبٍ.. أفلاَ يحملنَا الشوقُ إلى معرفةِ قصةِ لفافةِ التبغِ وكيفَ دخَلت إلى العَالَمِ القديمِ؟!

لقد كانَ نباتُ التبغِ أو الطباقِ «الدخان» من نباتاتِ أمريكا التِى وقعَ عليهَا نظرُ الكاشفينَ الأولينَ. وفى حَملة «فرجينيا» التِى أرسلهَا السير «ولتر رالى» تحتَ قيادةِ «ريتشَارد جرنفيل»، كانَ هناك «توماس هاريوت» كما سبقَ الكلامُ عن هذِه الحملةِ، وهو من العلماءِ البارزينَ فى عصرِ «إليزابث»، ولقد رأى «هاريوت» أهلَ أمريكا منَ الهنودِ الحمرِ يعدونَ التبغَ ويجفِّفُونه وَيُدَخِّنونه بطريقةٍ خاصةٍ لفتتْ نظَرَه. وعَرف «هاريوت» أنَّ الهنودَ يدخنونَ الطباقَ استجابةً لبعضِ طُقُوسهم الدينيةِ من ناحيةٍ، واعتقادًا منهم بأثرِهِ فى تحسينِ الصحةِ منْ ناحيةٍ أُخرى.

---

(١) الجَذْوَةُ: الجَمْرَةُ الملتَهِبَة.

ولعلَّ أولَ مرةٍ زُرع فيها نباتُ الدخانِ فى أوربا كانت قبل سنة ١٥٦٠ وفى مملكةِ البرتغالِ بالذَّاتِ. ولعلَّ السير «فرنسيس دريك»، و«هوكنز»، هما أولُ من حملَ شجرةَ الدخانِ منْ أمريكا إلى إنجلترا قبلَ حملةِ مستعمرةِ «فرجينيا» ببضْعِ منَ السنينَ. ولكنْ منَ المؤكدِ أنَّ السير «ولتر رالى» كانَ أولُ إنجليزى استعملَ التدخينَ، كما كانَ يستعملُه هنودُ أمريكا، طبقًا لما شَاهَدَه «هاريوت» بعينهِ فى خلال حملة سنة ١٥٨٥.

وأُعْجِبَ السير «ولتر رالى» بالنفْثةِ الأُولى من الدخَان، فاستمرَّ على ذلكَ حتى صارَ التدخينُ عادةً له. ولما كانَ الناسُ مُولعينَ بتقليدِ العظماءِ والتشبهِ بهم فى ثيابهِم وعَادَاتهم وطرقِ مَعَايشهم، فقد سرتْ بدعةُ التدخينِ من «رالى» إلى غيره من رجالِ القصرِ، ومنْ هنَا انتشرتْ بينَ الآلافِ المؤلفةِ منْ أفرادِ الشعبِ الإنجليزى.

ولم يستعملْ السير«ولتر رالى» لفافةَ التبغِ كما نراهَا الآن مُغلفةً فى ذلكَ الغشاءِ الرقيقِ من الورقِ الأبيضِ الرفيعِ. ولكنه استعملَ «الغلْيُونَ» أو «البيبَةَ» أو ما إليهمَا من الأسماءِ التى لا مقابلَ لها فى لسانِ العربِ، لأنَّ العربَ لم يعرفوهَا فى تاريخِهم الطَّويل.

وقد افتنَّ الصانعونَ فى صناعةِ «البيبة» وتَحْليتها وَنَقْشهَا فى ذلكَ الزمانِ؛ وكان الناسُ يتهادونَ فى المناسباتِ السعيدةِ والأعيادِ بهذِه الوسيلةِ الجديدةِ الغَربيَةِ للتدخِينِ. وكثيرًا ما كانَ يهدى «رالى» إلى

رجالِ البلاطِ وحَاشيةِ الملكةِ «إليزابث» ألوانًا مِنَ «البيبة» مُطَعّمة بالفضةِ الخالصةِ ..

وانتشرت عادةُ التدخينِ بسرعةٍ تُثير الدَّهشَةَ بين طبقاتِ الشعبِ الإنجليزِى كُلِّه، غنيهَا وفقيرهَا، وخاصَّتها وعَامتها، صانعهَا وزارعهَا، ولم تحل سنة ١٥٨٦ حتى كانت بدعةُ التدخينِ هى بدعةُ العصرِ التِى تلفتُ الأنظَارَ.

وانتقلتِ البدعةُ إلى فرنسا، وانتشرتْ فى أنحاءِ أوربا حينذاكَ على مقياسٍ واسعٍ. وأقبلَ الناسُ عليها إقبالاً ليسَ له نظيرٌ وكانَ مألوفًا فى ذلكَ الزمنِ أنْ نرى - مثلاً - فلاحًا إنجليزيًّا مُكِبًّا عَلى المحراثِ فى مُقَاطعة إنجيليا الشرقيةِ مثلاً، وهو يلهبُ الدابةَ بالسوطِ فى يَدِه

اليمنى، والبيبةُ فى يَدِه اليُسرى وهى بينَ مقبضِ فكَّيه حيثُ يتصاعدُ منها دخانٌ كثيفٌ..

ولم تجدْ «كاترين دى ميدتشى» أرملةُ هنرى الثانى وملكةُ فرنسا المعاصرةُ للملكةِ «إليزابث» ملكة الإنجليز، لم تجد بأسًا فى أنْ تحمى بدعةَ التدخينِ كَما حمتها فى إنجلترا «إليزابث» !

ولم يكُن عجيبًا أن يشجعَ الملوكُ والحكامُ ورؤساءُ الحكوماتِ الناسَ عَلى التدخينِ؛ لأنه أصبحَ موردًا من مواردِ الدخلِ الغنيةِ التِى تعتمدُ عليها الدولُ فى ميزَانياتها ...

نعم لقد أصبحَ الدخانُ منبعًا عظيمًا للدخلِ القومى فى كلِّ بلدٍ دخلَ فيها، ولم تكُن «إليزابث» إلا حَاكمة بارعةَ الإشارةِ حينَ قالت: «إنها سمعتْ عَنْ كثيرينَ ممن حولُوا الذهبَ إلى دُخَان.. ولكنَّ «رالى» كانَ أول من حولَ الدخانَ إلى الذهبِ النضار[1].!».

وذلكَ حقٌّ كُلّ الحقِّ.. فَفِى عصر «شارل الثانى» الذِى حكمَ إنجلترا من سنة ١٦٦٠ إلى سنة ١٦٨٥ وبعد حُكم «إليزابث» بعشراتٍ قليلةٍ منَ السنينَ- بلغ الدخلُ السنوى للخزانةِ العامةِ منَ التدخينِ أكثرَ منْ ٤٠٠,٠٠٠ جنيه. وهو مبلغٌ ضخمٌ جدًّا فى حسابِ تلكَ العصور، بل هو أضخمُ بكثيرٍ من تلكَ الدخولِ التِى كانَ يحصلُ عليها الملوكُ عن

(١) نَضَرَ: نُضُورًا. ونَضْرَة: كانَ ذا رَوْنَق وبهجَة.

طريق الضرائب الفادحة التى كانت تثير سخط الشعوب وتعرض العروش والتيجان لخطر عظيم ...

ولقد نسجت قصص كثيرة طريفة حول الطريقة التى كان يدخن بها السير «ولتر رالى» «غليونه» الطويل المصنوع من الفضة المحفورة المزينة بالنقوش. ومما لا شك فيه أنه صار زعيم المدخنين فى عصره بل فى جميع العصور.. فقد كانت «البيبة» لا تفارقه لحظة من ليل أو ساعة من نهار! ولا تبرح فكيه المنطبقتين على فمها الأنيق المنقوش! وليس عسيرا أن يتخيل القارئ السير«رالى» وهو يدخن ساعة قراءاته لأوراق آباء الكنيسة فى صفحاتها الجافة البنية اللون، أو حين يؤلف الفصول الطوال لكتابه فى «تاريخ العالم» الذى يعد أثرا رائعا فى الأدب الإنجليزى، أو حين يدلى بآرائه فى مجلس من المجالس، فى صوت ديفونى مهذب رقيق، وغليونه الطويل مستقر على إحدى ركبتيه يتصاعد منه دخان متجعد كثيف! أو حين احتواه ظلام السجن فى برج لندن، وهو فى محبسه وحيد يستمع إلى أصوات الموج الذى يلتطم فى نهر «التيمس» على أحجار البرج الكئيب. أو حين وقف على درج المشنقة ليلقى قضاءه المحتوم، وهو يدخن آخر نفثة من الدخان اشتهاها قبل أن يسلم رقبته إلى الجلاد، وقد انعكس بصيص من الدخان الملتمع فى الغليون على سواد ثوب الإعدام الرهيب .

## أول طبق من البطاطس !

لعلَّ الذينَ زارُوا إنجلترا، أو أقـامُوا فيـها بعـضَ الوقـتِ، أو قـرءُوا عنِ الإنجليزِ فى بلادهم، وعـن ضُـروبِ مَعِيشـتهم وألـوانِ طَعَامـهم، عرفُـوا غَرَامَـهُم بطعـامِ البطـاطسِ التِـى يَأكلونـها مُحمـرةً تـارةً، ومسلوقةً أُخرى، ومهُوكَة[1] تَارَاتٍ .. !

ولابدَّ أنَّ كُلَّ إنجليزى أو إيرلندى يعلمُ كيـفَ دخلـت البطـاطسُ إلى بلادِه؛ وهى لم تكنْ منْ نباتاتها المحليَّة وإنما هى طارئة عليهَا .

ونحنُ هنَا فى معرضِ الحديثِ عنِ السـير «ولـتر رالى» الرائـدُ الأولُ لمشروعٍ مُستعمرة «فرجينيا» بأمريكـا الشـمالية، ومـن المناسـب أن نذكرَ أثَرَهُ الكبيرَ فِى إدخالِ زراعةِ البطاطِس إلى إنجلـترا وإلى جَارتـها إيرلندة، كما ذكَرنا أثَرَهُ فى انتشار الدخَانِ والتدخينِ ..

يذكرُ المؤرخونَ أنَّ «هاريوت» أحد العلماءِ الذينَ كانُوا فى الحملـةِ الاستعماريةِ إلى «فرجينيـا» تحتَ قيـادةِ «جرنفيـل» قـد وصفَ نبـاتَ البطاطسِ هنـاكَ وصفًـا لا يـدعُ مجالاً للشـكِّ فـى حَقيقتـه، ووصـفَ طريقةَ الهنودِ الحمـرِ فِـى أكْلـه، كمـا وصـفَ طَرِيقتـهم فـى تدخـينِ الطبَاق .

---

(١) مَهَكَ الشىءَ مَهْكًا: سَحَقَهُ.

ويذكرُ المؤرخونَ أنَّ «هاريوت» حَمل معه بعضًا مِنْ هذا النباتِ الذى كانَ غريبًا على رجالِ الحملةِ كُلِّهم، كما كانَ غريبًا عَلى الإنجليزِ فِى دِيَارهم. وفى سنة ١٥٩٦ - أى بعدَ حملةِ «فرجينيا» الكشفيةِ بعشرةِ أعوام - كان نباتُ البطاطسِ ينمُو فى حدائقِ بعضِ الأغنياءِ كنباتٍ نادر غريبٍ؛ وكانتْ شجيراتٌ مِن نباتِ الطباقِ أو التبغِ تنمُو كذلكَ فى هذِه الحدائقِ الممتدةِ عَلى ضفافِ نهرِ «التيمس». وقد وصفَ العالمُ النَّبَاتى المشهورُ جيرارد سنة ١٥٩٧ فى مجمُوعته النباتيةِ هذيْن النباتَيْنِ وصْفًا علميًّا دقيقًا .

وعَلى الرغمِ منْ أنَّ نباتَ البطاطِس قد دخلَ إلى القارةِ الأُوربيةِ قبلَ ذلكَ العهدِ بزمنٍ بعيدٍ عَلى يَدِ الإسبانيينَ، إلاَّ أنَّ النماذجَ التى جلبهَا «هاريوت» معه مِنْ «فرجينيا» سنة ١٥٨٦ كانتِ البذرةَ الأُولى لهذَا النباتِ فى بلادِ الإنجليز .

ولقدْ أخذَ السير «ولتر رالى» بعضَ هذه النماذجِ المختلبةِ منْ «فرجينيا» واستنبتهَا فى حَدَائقه ومزارعِهِ الواسعةِ بايرلندة، فأتت أطيبَ الثمراتِ. ومِنْ هُنَا عدَّ المؤرخونَ هذه حسنةً من «ولتر رالى» إلى الإيرلنديين الذينَ يحملونَ له أسوأ الذكرياتِ حينَ قسَا عليهم أشدَّ القسوةِ فى إخمادِ ثَوْرتهم كما سلفَ الحديث .

ويسندُ المؤرخونَ هذا القولَ، أو هَذه الدعْوَى، بما قرره أحدُ العلماءِ أمامَ الجمعيةِ الملكيةِ سنة ١٦٩٣ بأنَّ جَدَّه زَرَعَ البطاطسَ لأولِ مرةٍ فى «إيرلندة» منْ ذلكَ النوعِ الذِى اسْتنبته السير «ولتر رالى» فى حَدَائقه ومَزَارعه.

وقد أخَذت زراعةُ البطاطسِ تَنْمو وتتسعُ فى «إيرلندة» منذُ أيامِ «رالى» عَلى مقياسٍ وسيعٍ. ولكنها لم تأخذْ فى الانتشار فى إنجلترا إلا فِى أوائلِ القرنِ الثامنِ عشر، أى بعدَ «إيرلندة» بقرنٍ منَ الزمانِ .

ولقد قِيل هنَا - كما قيلَ من قبلُ فى الدخانِ - إن السير «فرنسيس دريك» والسير «جون هوكنز» هما أولُ من أدخلَ البطاطسَ إلى إنجلترا قبل أن يُفكر السير «ولتر رالى» فى مشروعِ مُستعمرةِ «فرجينيا» بزمنٍ غيرِ قَرِيب .

ويردُّ المنكرونَ لهذِه الدَّعْوى، والمؤيدونَ للسير «ولتر رالى» بأن النماذجَ التى جلبهَا «دريك» وهوَ كنز سنة ١٥٦٥ لم تكنْ غيرُ أنواعٍ منَ البطاطةِ؛ التِى تُشبه على البعدِ نباتَ البطاطسِ إلى حدٍّ يصعبُ معه التمييزُ بينهمَا !

# الأرمادا الأسبانية

كانتِ المنافسةُ على أشدها بينَ إنجلترا وأسبانيا فى الثلثِ الأخيرِ منَ القرنِ السادسِ عشر. وكانت كلٌّ واحدةٍ منَ الدولتينِ تدسُّ[1] الدسائسَ للأُخرى.

وليسَ هنا مَجَال ذكْر الأسبابِ والدوافعِ لهذا العداءِ المستحكَمِ بينَ الدولتيْنِ فى تلكَ العصُور. إلا أنَّ المسابقةَ إلى التوسُّعِ والاستعمار كانت فى المحلِّ الأولِ منَ الاعتبار. على أنَّ الخلافَ المذهبى فى الدينِ كانَ له أثره الفعالُ فى إثارةِ هذه المنافسَات.

لقد كان «فيليب الثانى» ملكُ أسبانيا طموحًا كثير الأطمَاع، وكان يتمنَّى لأسبانيا سيادةً فِى العالمِ تجعلهَا زعيمةً مرهوبةَ المكانِ. وقد اعتقدَ فى قرارةِ نفسِه أنَّ الله ساخطٌ عليهِ بدليلِ أنه أفقدَه زوجَاته الثلاَث.. فأخذَ يناصرُ الكاثوليكيةَ استرضَاءً لله واستعادةً لرضَاه، ولكن إنجلترا وإسكتلندة كانتَا عقبتيْنِ فى سبيل غَايته؛ لأن المذهبَ البرُوتستانتى كانَ سائدًا فيهمَا.

فليبدأ «فيليبُ الثَّانِى» إذنْ معَاركه فى سبيلِ الزعامةِ الدينيةِ وبسطِ النفوذِ والسيادةِ عَلى أوربا. وفى سنة ١٥٧٨ سنحت له الفرصةُ

---

(١) تَدُسُّ الدَّسَائِسَ: المكْرُ والخِدَاعُ.

الملائمةُ فضمَّ البرتغالَ إلى مملكته، وأدخلها فى حَوْزته. وبذلك أصبحَت شبهُ جزيرةِ «إيبريا» كُلّها تحتَ سُلْطانه. واتَّجَه «فيليب الثانى» بمطامعه البعيدةِ إلى إنجلترا ليغزوها فى دارها. والحقُّ أنَّ الإنجليزَ أعطُوا «فيليب الثانى» مبررًا قويًّا ومسوغًا ظاهرًا لإعلانِ الحربِ عليهم. فقد كانَ البحارةُ المغامرونَ منَ الإنجليز فى القرنِ السادسِ عَشَرَ يجوبونَ البحارَ ويركبونَ مخاطرها، ويتعرفونَ طُرقها الواسعةَ المتعددةَ، حتى أصبحُوا شغلاً شاغلاً للأسبانيينَ ..

وزادَ البحارةُ الإنجليزُ فذهبُوا إلى أقصَى الشمالِ الشرقى مِنْ أمريكا، كما صنعَ «فروبشير» (Frobisher)، و«جون ديفز» (John Davis) حينما اكتشفَا فى الشمال بعضَ المضايقِ والخلجَان .

وجاء «جون هوكنز» (John Hawkins) فأثارَ غضبَ الأسبانِ بإتجارهِ فِى الرقيقِ مَعَ جزائرِ الهندِ الغربيةِ التى كانت وقفًا عَلى الأسبانيينَ.

وأخذَ «ولتر رالى» يرسلُ الحملاتِ واحدةً بعدَ أخرى - كما سبقَ القولُ - وَيَمدها بمالِهِ الكثيرِ ونفوذهِ العظيمِ فى سبيلِ إنشاءِ مُستعمرة «فرجينيا» التى لم تبرحْ خَيَالَه لحظةً واحدةً !

ورجعَ السير «فرنسيس دريك» مِنْ رحْلته حولَ العالمِ يحملُ الأحمالَ والأثْقَالَ والقناطيرَ المُقَنْطرة منَ الذهبِ والفضةِ والأسلابِ التى سلبها منْ سفنِ الأسبانِ، ومن المدنِ الأسبانيةِ على شواطئ البحار والمحيطاتِ ..

ولم يكنْ سلبُ أموالِ الأسبانِ، وَنَـهْبُ كُنُوزهـم، ومهاجمـة سُفنهم، وتخريب مُدنهم فى ذلكَ الزمـانِ عمـلاً يعـدُّ فـى نظـرِ الإنجليـزِ مُنَافيًا للفضيلةِ، أو مُجَافيًا لقواعدِ الأخلاقِ والآدابِ! وإنما كَانُوا يروْنَه عمـلاً جائزًا، ويروْنَ غنائمَ الأسبانِ شيئًا حلالاً لا لومَ عليه ولا تَثْرِيب[1] ..!

وزادتْ إنجلـترا أسـبابَ العـداوةِ بينـهَا وبـينَ «فيليـب الثـانى» ملـك أسبانيا بتلكَ الحملةِ التى قامَ بها السير «فرنسيس دريك» سـنة ١٥٨٧ عَلى ميناء «قادس» الأسبانية، فدمَّرَ بعـضَ السـفنِ الراسـيَةِ فيـهَا، وقادَ بعضهَا الآخر عَائِدًا إلى إنجلترا، حيثُ كانتْ هَذِه السـفنُ الأخـيرةُ مملوءةً بالنفائسِ وأغْلى الكنُوز ..

بعدَ ذلكَ كله لم يكنْ هناكَ مفرٌّ منْ أنْ يبدأ «فيليـب» حملتـه علـى إنجلـترا سنة ١٥٨٨. فأعـدَّ أسطولاً ضخمًا، وسمـاه «الأرمـادا» أى الذِى لا يُقْهر ولا يغْلب عَلى أمرِه، والتمسَ منَ «البابا» الدعـاءَ لـه بـاليمْنِ والبركاتِ حتى يكتبَ الله له التوفيقَ فى حملتِـهِ عَلـى الإنجليـز. وكـانت القواتُ البريةُ وفرقُ المشاةِ ممن جَمعـهم فيليـب مُحتشـدة عنـد ثغـرِ «دنكرك» الفرنسى ليذهبُوا منه فـى حمايـةِ الأسـطولِ إلى الشـواطئِ الإنجليزية .

وبينما كـانَ اللـورد «هـوارد أفنجـهام» يقـودُ الأسـطولَ الإنجليـزى ومعـه جماعـةٌ مـن قـادةِ البحـار مـنْ أمثـالِ «دريـك»، و«هوكـنز»،

---

(١) ثربَه ثربًا: لاَمَه وعَيَّره بذنْبِهِ.

و«فروبشير» وغيرهم، كان السير «ولتر رالى» واحدا من لجنة عينت لرسم خطة عسكرية سريعة للدفاع البرى عن البلاد .

وليسَ هناكَ من دليلٍ قَوى عَلى أنَّ «ولتر رالى» اشتركَ مع الأسطولِ الإنجليزى فى الاستعدَادَاتِ البحرية لمقاومةِ الغارةِ الأسبانيةِ أولَ الأمرِ. وإنما كانَ عمله فى تحصينِ داخلِ البلادِ فقط، تنفيذًا للخطةِ التى وَضَعتها اللجنةُ التى كانَ هو أحدُ أعضائها البارزينَ .

ولما دخَلت سنة ١٥٨٨ فى نصفها الثانى، كان «ولتر رالى» يجوبُ أنحاءَ البلادِ المختلفةِ، وينتقلُ من مكانٍ إلى مكانٍ ليعجلَ بحشدِ الجيوش، وتجنيدِ الجنودِ. وكانَ دوره الخطيرُ فى هذِه الحربِ أن يهيئَ جنودَ الرَّدِيفِ[1] للنزولِ فى الميدَان.

وتذكرُ كلُّ المصادر التى تترجمُ لحياةِ السير «ولتر رالى» أنه حينَمَا التقَى الجمعَانِ فى مياهِ بحرِ المانش - وكانَ أسطولُ الأرمَادَا مؤلفًا من ١٢٠ سفينةً وأسطولُ إنجلترا مُكونًا من ٥٤ سفينةً - كانَ السير «ولتر رالى» جنديًا متطوعًا وتحتَ رياسةِ أميرِ البحرِ اللُّوردِ «هوارد أفنجهام»، وأنه ظلَّ فى المعركةِ البحريةِ الهائلةِ حَتى أُخرياتها. وتستندُ هذه المصَادر إلى تقريرٍ أُرسل إلى «الدون مندوزا» (Mendoza) سفير أسبانيا فى إنجلترا فى ذلكَ الحينِ. إلاَّ أنَّ بعضَ المحققينَ ينكرُ اشتراكَ

(١) الرَّدِيفُ: مَنْ يُسرَّح من الجيش العامل ليكونَ مَدَدًا فى التعبئة العامة.

«ولتر رالى» ، كما ينكرُ اشتراك السير «روبرت سيسل» فى هذه المعركةِ البحْريّةِ.

وفى شهر سبتمبر - أو فِى أوائل أيامه عَلى التحقيق - كان السير «ولتر رالى» فى مقاطعةِ «كورنوال»، ومنْ هنَا سافرَ إلى لندن حيثُ اجتازَ البحرَ إلى إيرلندة فى صُحبة السير «ريتشارد جرنفيل» ليطردَ الأسبانيينَ الذينَ كانوا يحرضونَ الإيرلنديين عَلى الثورةِ .

ولمْ يهدأ السير «ولتر رالى» ، بلْ لم تهدأ إنجلترا كُلُّهَا إلاَّ حينما هَزمت «الأرمادا» الأسبانية هزيمةً مُنكرة، بعدَ أنْ تشتتت قطعُ أسطولهَا المتناثرةِ عرض البحْر. وقدْ لعبت الحظوظُ دورًا كبيرًا فى إتمامِ النصرِ للإنجليز، فإنَّ مَا سلم من قطعِ الأسطولِ المهزومِ الهاربِ قَضَت عليه الرياحُ والعواصفُ، وقَذفت به بعيدًا إلى بحر الشمالِ، حيثُ اضطرَّ إلى الطوافِ حولَ إسكتلندة، ليعودَ ثانيةً إلى قواعدِهِ فِى أسبانيا مَكْسُورَ الأجنحَةِ، مُحطَّم القلاَعِ !

ولم يبقَ منَ السفنِ الكثيرةِ التِى كانت تكوّن الأرمادا إلا أربعٌ وخمسونَ قطعةً غير صالحةٍ للعملِ من كثرةِ مَا أصْلتها النيرانُ.

وهكذَا أصبحَ أصْحَابُ الغاراتِ البحريةِ منَ الإنجليز وَقَرَاصِنَتِهِم أمراءَ البحرِ بعدَ هزيمةِ الأرمَادَا الأسبانية. ولما أخَذت نجومُ البحارةِ اللاَّمعينَ - من أمثالِ «دريك»، و«هوكنز»، و«فروبشير» - تجنحُ إلى المغيبِ، أخذت طلائعُ العصرِ الجديدِ تلمعُ بعدَ أن فسحَ لهم أسلاَفُهُم الطريقَ. وكان السير «ولتر رالى» بحقٍّ ألمعَ هذِه النُّجُوم .

## بعد الهزيمة

مضَى ما يقربُ مِن عَاميْنِ بعدَ هزيمةِ الأرمادا الأسبانية كان السير «ولتر رالى» فى خِلاَلهما مشغولاً بأمور كَثيرةٍ، ما بينَ مكايدِ[1] القصرِ الملكى ودَسَائسه، وواجبَاته فى «كورنوال» و«ديفونشير» لمراقبةِ الأعداءِ الأسبان، ومواجهةِ كل احْتمال لهم بالعودَةِ إلى استئنافِ المعاركِ مِنْ جَدِيد، واهتمامِهِ بأعمالِ القراصنَة الإنجليز الذينَ كانُوا واقفينَ لكلّ سفينةٍ أسبانية بالمرصَاد !

وفى سنة ١٥٩١ عُين «رالى» قائدًا ثانيًا لسفنِ الحراسةِ الإنجليزيةِ، وكانَ القائدُ الأولُ اللورد «توماس هوارد». وكانَ هذا الأسطولُ الحارسُ عَلى أتم ما يكونُ مِنَ الأُهبة والقوةِ، ليبحَثَ عنِ السفنِ الأسبانية المصفَّحَةِ التِى أخذت تطوفُ المحيطَ حتَّى جَزَائر الأزور وجُزُرِ الهندِ الغربيةِ، فى سبيلِ الانتقامِ وأخذِ الثأر منَ الإنجليزِ.

وفى المساءِ الذِى همَّت فيه سفنُ الأسطولِ الإنجليزِى بالرحيلِ من الثغور الإنجليزية، صدرَ أمرُ الملكةِ «إليزابث» بأن لا يبرحَ «ولتر رالى» البَرَّ معَ المسافرينَ، وأنْ يحلَّ محله على الفور السير «ريتشارد جرنفيل». ولعلَّ الملكةَ كانت حريصةً هذِه المرة أيضًا على استبقَاءِ السير «ولتر رالى» قَرِيبًا منهَا، كما كانت عَادتها دائمًا معه، ولكنها

(١) الكيدُ: إرادةُ مَضَرَّة الغير خِفيَةً، وهو من الخُلُق السَّيء.

تَظَاهرت فى الأمرِ الصَّادِر منها بأنها كَلَّفته مهمةً جليلةً فِى مُقَاطعة «ديفونشير».

وَلَمْ تسكُتْ إنجلترا بعدَ موقعةِ الأزور عنْ إعدادِ الحملاتِ ضِدَّ الأسبانيين، ففى سنة ١٥٩٢ أعدَّت فرقةً منْ أسطولٍ بحرى لهذا الغَرَضِ، وقد قامَ السير «ولتر رالى» تقريبًا بعبءِ وتكاليف إنشاءِ هذا الأسطُول وقدَّمَ الرجلُ أكبرَ مَا يستطيعُ تَقْدِيمه منَ العَوْنِ المادى فى سبيل بناءِ سفنِ الأُسْطول، حتى كانَ جملةَ ما سَاهَم به ٣٤ ألف جنيه، وهو مبلغٌ ضَخْمٌ فى عملةِ ذلكَ العصرِ .

وقدمَ «إيرل كمبرلند» مبلغًا كبيرًا منَ المالِ أيضًا على سبيلِ المسَاعدةِ. أما الملكةُ «إليزابث» فقد تبرَّعَت للأسطولِ بسَفينتيْنِ اثنتيْنِ: وهما «فورسايت»، و«جارلاند».

وقد كانَ مرسُومًا أن يتولَّى السير ولتر قيادةَ هذِه الحملةِ بشخْصِهِ، ولو أنَّ الملكةَ عَارضَت هذِه الخطَّةَ أيضًا كَعَادتها..!

وأخيرًا سُمحَ للبطلِ المتعطِّش إلى البحْرِ أنْ يذهبَ مَعَ الحملةِ. وفى أوائلِ شهر مايو من العامِ نفسِه بينما كانَ الأسطولُ يرفعُ المراسِى للسيرِ فى البحرِ. تلقَّى ولتر رالى أمرًا منَ الملكةِ بأنْ يعتزلَ قيادةَ الأسطولِ، ويترك ذلكَ لزميلِهِ «فروبشير» وأن يعودَ إلى إنجلترا عَلى الفَوْر .

ولم يكنْ هينًا عَلى نفسِ «رالى» أنْ يتركَ القيادةَ هذِه المرةَ بهذِه السُّهولةِ، فزعمَ لنفسِه الحق فِى أنْ يذهبَ مَعَ الأسطولِ إلى مَدَى أقْصَاه رأس «فينيستر» (Finisterre) عَلى الشَّاطِئِ الأسبانى، حيثُ يتاحُ له أنْ يلْقى الأعداءَ فِى ديَارهم!

وذهبَ الرجلُ فعلاً إلى رأسِ «فينيستر».. وهناكَ قَسَّمَ الأسطولَ قِسْمين: قسمٌ تحتَ قيادةِ «فروبشير» ليهددَ سواحلَ البرتغالِ التى كانت حينذاكَ جزءًا مِنْ مملكةِ أسبانيا، ليمنعَ الأسطولَ الأسبانى المتجمعَ هناكَ مِنَ السيرِ فى البحرِ، وقسمٌ تحتَ قيادةِ السير «جون بورو» (John Burgh) [1] ليذهبَ إلى جزائرِ «الأزور» (Azores) متعقبًا السفنَ الأسبانيةَ المحملةَ بالنفائسِ والمالِ الكثيرِ.

وقد استطاعَ هذا الأسطولُ الأخيرُ أن يأسرَ سفينةً أسبانيةً ضخمةً اسمها «مادر دى ديوز» (Maare de Dios) وكانتْ فِى طريقِ عَوْدتها إلى أسبانيا مُحملة مِنْ جزر الهندِ الشرقيةِ بأحْمَالٍ يقدرهَا المؤرخون بنصفِ مليون مِنَ الجنيهات!

وفى أول شهر يونيو مِنَ العام نفسِه عَاد السير «ولتر رالى» إلى لندن يحملُ ثمارَ عَمَلَيْنِ عَظيمين: أولهما مُنَاوأة الأسطولِ الأسبانى فى رأسِ فينيستر، والثانى: غَصَبَ[2] سفينةً أسبانيةً هائلةً بما فيهَا مِنْ أنفسِ الكُنُوز!

---

(١) تكتب أحيانًا هكذا (John Borough).

(٢) غَصَبَ الشىءَ غَصْبًا: أخذه قهرًا وظُلمًا.

وفى اليومِ الثامنِ منَ الشهر نفسيه كان الملاحُ المغامرُ الجريءُ يسكنُ قصرًا شاهِقًا فى لندن، وكانَ هذا القصرُ العتيقُ قُدِّمَ إلى «ولتر رالى» منحةً منَ الملكةِ سنة ١٥٨٤.

ولكنَّ الله يغيرُ الأحوالَ ما بينَ عشيةٍ وضحاها من حَالٍ إلى حالٍ، حَتَّى لا يغترَّ مغتر، ولا يتطاولَ مخْدُوع.. ففِى شهرِ يُوليو منَ العامِ نفسيه، وبعدَ شهرٍ وَاحِدٍ منْ سكنى القصْر المُنِيف[1]، كان «ولتر رالى» سَجِينًا فى برجِ لندن (The Tower of London) يُعَانى فيه أسرَ القيودِ، وثقلَ الحديدِ .!

---

(١) القصرُ المنيفُ: طَويلٌ فِى ارتفَاعٍ.

## تقسيم الغنيمة

كَانت الغنيمةُ التِى حَصلت عليها إنجلترا منَ اغتصابِ السفينةِ الأسبانيةِ «مادر دى ديوز» شيئًا لم يرَ التاريخُ الإنجليزى له مثيلاً فِى تاريخِ الأسلاّبِ البحْريةِ.. والحقُّ أنَّ كنوزًا تحملهَا سفينةٌ شراعيةٌ واحدةٌ، وتقدرُ بنصفِ مليون منَ الجنيهاتِ تعدُّ منْ قصصِ الخيالِ، أو مِنْ حكاياتِ ألفِ ليلة وليلة ..

والحقُّ أنَّ قصةَ أسرِ هذِه السفينةِ الجبارةِ الهائلةِ تعدُّ شيئًا لا تكَادُ تُصدقه العقولُ. فإنَّ السفينةَ التِى أسَرتها لم ترتفعْ فِى الحجمِ والقدر إلى مثلِ جَلاَلها الرَّهيب! وإنما اشتركَ فِى أسرهَا سفينتانِ صغيرتانِ جدًّا بالنسبةِ إلى حجمهَا الهائلِ، ومعهما بضْعٌ مِنَ السفنِ الصغار .

لقد أحَاطت هذِه العفاريتُ الصغيرةُ الخفيفةُ السريعةُ الحركَة بهذَا العملاقِ الكبير منْ كلِّ الجهاتِ، وعَطَّلت تَحَركه فى الماءِ قليلاً قليلاً بما أثارته من مُنَاوشَات[1]، حتى تمكنَ الملاحونَ الإنجليزُ أن يصعدُوا على ظهرِ السفينةِ الفخمةِ الوقُور، وأن يستعملُوا سُيوفهم القصيرة الحادَّة، وبنادِقَهم الصغيرة المحكمةَ الأهدَاف، حتى اضْطروا ملاحيهَا الأسبان إلى الاستسْلام .

---

(١) نَاوش فلانًا : اختبر قوَّته قبل أن يقَاتلَه.

وكانَ لنبأِ هذِه الحادثةِ رَنَّة وفرحَـة كُبرى فـى أنحاءِ إنجلترا، حتـى أخذَ الناسُ يتوافدونَ مِنْ لندن ومنَ الوسـطِ ومـنْ أقْصـى الشـمالِ علـى ثغْـرِ «بليمـوث»، لـيروا بأعينـهم هَـذا العمـلاقَ البحـرِى وقـد استسلمَ إلى رجَالهم الأبطَال. وكانت صيحـاتُ الاستحسـانِ، وهتافـاتُ التـهليلِ، وعلامـاتُ الإعجـابِ والعجـبِ تبـدُو مـن الآلافِ المؤلفـةِ المتدافعةِ إلى ذلكَ الميناءِ الكبيرِ.

وأخذَ الطمعُ يغالبُ الأشــرافَ والتجـارَ ونـهازى(١) الفُـرص الذيـنَ انحـدرُوا إلى الميناءِ مـن كـلِّ صَـوْبٍ(٢) ، عَلـى مُتـون(٣) الخيــلِ، وفــى العجَلاَتِ التى تجرهَا الجيادُ، وعلى الأقدامِ، لعلهم ينـالونَ نصيبًـا مـنْ هذِه الأسلابِ والغنائمِ والكنوز ونفائسِ الشرقِ وذخَائره التِى سَـاقتها إليهم عنايةُ الله.

وكانَ المشهدُ عجيبًا ومثيرًا لآياتِ الدهشِ والذهُول، وقَدْ شَبه أحدُ المؤرخينَ هؤلاءِ الوافدينَ على انتهابِ الغنائمِ بالفـيرانِ التِـى تتقـاطرُ وتتدافعُ عَلى قطعةٍ منَ الجبنِ، ليخطفَ كلٌّ واحدٍ منها ما يستطيعُ أنْ يختطفَهُ فى غمراتِ الزحامِ، وتزاحُم الأقدَام!

واختلَّ النظـامُ، واضطـربَ حبـلُ الأمـانِ، وسَادتِ الفوضَـى، ولم يستطعْ واحدٌ منْ أصحابِ السلطانِ، وذَوى الجاهِ والنفوذِ أنْ يســتردَّ النظامُ أو يعيـدَ الهــدوءَ، لأنَّ أصحــابَ الســلطانِ أنفســهم كـانُوا حريصينَ كلَّ الحرصِ عَلى أن لاَ يفوتهم نَصيبهم من هذِه الأسْلاَب!

وخَشيت الملكةُ «إليزابث» أنْ تؤدى هَذِه الحالةُ المضطربةُ إلى نتائجَ لاَ تحمدُ عقباهَا، فأرسلَت باسمهَا رسُولا، هــو السـير «روبرت سيسـيل» ، إلى

(١) يُقالُ انتهزَ الفرصَةَ: اغْتَنَمَهَا وبَادَرَ إليهَا.

(٢) الصَّوْب: الجِهَة..

(٣) مُتونِ الخيل: ظُهُور الخيل.

ميناء «بليموث» لعلَّه يساعدُ على تهدئةِ الحالِ مـنْ نَاحيـة، ويقـدمُ لها تقريرًا بما يحدثُ من ناحيةٍ أخرى .

وكانَ تقريرُ الرسولِ أنه شاهدَ بعينيـه فِـى كُـلِّ موضـعِ قـدمٍ فـى الطريـقِ العَـام إلـى «بليموث» رجلاً أو امـرأةً، أو فتًـى أو فتـاةً، أو ما شئتَ أيها القارئُ الكريمُ منَ الناسِ، يحملُ حقيبةً محملةً بما لاَ يعلـمُ ! ولكنَّ رائحةَ المسكِ تفوحُ منها إلى أبعدِ المسَافَات !

وهنَا فِى هذا الاندفاعِ نحـوَ النـهائبِ[1] والغنـائمِ نبحـثُ عـنِ الرجـلِ الـذِى نكتـبُ الآن قصـةَ حياتِـهِ، وسـيرةَ مغامراتِـهِ، وحكايـةَ اسْتِكْشافاته فلاَ نجده بينَ الألوفِ المؤلَّفة .

أينَ السير «ولتر رالى» منْ هذا التدافُعِ وهذا الزحَام ؟

أينَ الرجلُ الذِى بعثَ السير «جون بورو» - كما سلف القول - إلى جزائـرِ الأزور ليتعقَّبَ سـفنَ الأسـبان التِى كانـت منهـا هـذِه السفينة المشحُونة بـأغلَى الكنـوز التـى يمكـنُ أنْ يتصورهَـا عقـلُ إنسانٍ ؟

لقد كانَ هذا الرجلُ فـى السـجنِ يُعَـانى الضيـقَ والحسـرةَ والألَم، بينما الناسُ جميعًا فى الخارجِ يندفعونَ بنهم نحوَ الأملِ، ونحوَ الثراءِ.

ولكن، أىَّ ذنبٍ اقترفَه السير «ولـتر رالى» ليُـودعَ ظـلام السـجونِ؟ ويحرمَ حَتَّى رؤيةَ ثمار الانتصَار ؟

---

(١) نبَبَ الشىءَ نهبًا: أخَذه قَبْرًا.

إن الملكةَ المتقلبةَ المزاجِ قدْ غَضبتْ عَلى صديقهَا الوفى المخلـصِ لسببٍ تافه! مما تغضبُ له أغيرةُ المـرأةِ وكبرياؤهَـا، فأرسَلته إلى بـرجِ لندن ولم يشفعْ فيه لها إخلاصُه القديمُ ..

وفى خلالِ السجنِ كانت الفوضَـى تسـودُ شـاطئَ إنجلـترا الجنوبـى كُلَّه منْ أثرِ اندفاعِ المتهالكينَ عَلـى انتـهابِ الغنـائمِ الأسـبانيةِ؛ حتَّـى الأشراف وأصحاب السلْطان ورجَال الأسطولِ لم يفتـهم أن يتقـاتلُوا مرَّ القتالِ عَلى اقتسامِ الأسلابِ ليفوز الواحدُ منهم بأوفى نصيبٍ .

وهنا تظهرُ الحاجةُ إلى الرجلِ الذِى يؤثرُ بشـخْصِهِ فـى النُّفُـوسِ، ويُهَدئ النزَعاتِ الثَّائرةِ، وَيَصدُّ تيارَ النزاعِ العنيفِ .

ولم يكنْ غيرُ شَخْصية السير «ولتر رالى» التِى تستطيعُ أنْ تفعـلَ ذلكَ، بمَا له منْ أثرٍ عَلى النفوسِ.

ولكن أينَ السبيلُ إليه وهو فى سـجْنِ البرجِ الكئيـب؟ هنـا اتفـقَ جماعـةٌ مـن بطانـةِ الملكـة «إلـيزابث» عَلـى أن يلتمسُـوا منـها الإذنَ للرجلِ السجينِ بمغادرةِ السـجنِ ولَـوْ إلى حِـينٍ، حَتَّـى يُـهدئ نفـوسَ الثائرينَ المتهافتينَ.

وأذنـت الملكـةُ للسـير «ولـتر رالى» أن يـبرحَ السـجنَ ليذهـبَ فـى صحبةِ الحراسِ والأعوانِ إلى حيثُ ترسُـو السـفينةُ الأسـبانيةُ الهائلـةُ بأحمالها الثقَال، التى توافدَ الناسُ لاختطافهَا منْ كـلِّ سبيلٍ. وخـرجَ

السجينُ في صُحْبَةِ اثنيْنِ منْ كبار الرجَال وهما «فرنسيس دريك»، و«روبرت سيسل» عَلى أملِ أنْ يضعَ بشَخْصِيته حدًّا لهذِه الأطمَاع، وهذا الصراع .

وذهبَ السجينُ مع رَفيقيْهِ العظيميْنِ فى حِرَاسة حَارس يُدعى «مستر بلنت» ، ولعلّه السير «كريستوفر بلنت» ، الصديق الحميم للورد «إسيكس»، الذِى كانَ يحَقّ عدو السير «ولتر رالى» المبين ..

وما كادَ السير «ولـتر رالى» يصعـدُ عَلـى مـتنِ البـاخرةِ الأسبانيـة المأسُورةِ حتى أقبلَ عليه أصدقاؤُه من قوادِ البحـار وكبـار الملاحـينَ يُهنئونه بعودةِ الحريةِ إليه وخَلاَصِـه مـن عـالمِ السُّـجُون. ولكنـه ردَّ عليهم قـائلاً فـى نغمـةٍ يملؤهَـا الأسـفُ الحزيـنُ: «كَـلاَّ ! إننِـى الأَسِيرُ المسْكينُ لملكةِ إنجلترا !» .

وأقبلَ الأشرافُ والقـوادُ ومندُوبُـو القصـرِ الملكـى وأعضـاءُ لجنـةِ تقديرِ أسلاب الأسـبانيينَ علـى تنظيـمِ عمليـةِ التوزيـعِ والتقسـيمِ.. وكانُوا هَذِه المَرَّة مُصممينَ عَلـى أن يحلُّـوا هـذه المشـكلةَ علـى وجـهٍ حازمٍ سريعٍ. وقدَّروا قيمـة الغنـائمِ بمبلـغ ١٥٠ ألـف جنيـه، وهـى فـى الحقيقةِ كانت ترتفعُ إلى نصـفِ مليـون مـن الجنيـهات .. وهـو مبلـغ هائل فى ذلك الحين.

وَخَرجت الملكةُ منَ الغنيمةِ بأوفَى نصيب.

واعتقدَ السير «ولتر رالى» أنه عُومل بإجحافٍ شديدٍ حـينَ خـرجَ منَ المعركةِ كُلِّهَا بمبلغ ٣٦ ألفًا منَ الجنيهات، عَلى حينَ أنه أنفـقَ مـن حُر مَاله ٣٤ ألفًا.. فكأنَّ ذلكَ العناءَ الطويلَ، والجهدَ المبذولَ، كانَ فى سبيلِ ألفين اثنين منَ الجنيهات .

والحقُّ أنه عادَ مـن ذلـكَ كُلِّـهِ بصفقـةِ المغبُـون، فـإن زميلَـه فـى الصفقةِ «إيرل كمبرلاند» قد خـرجَ كذلـكَ بسـتةٍ وثلاثـينَ ألفًـا مـنَ الجنيهاتِ على حينَ أنه أنفقَ عَلى الحملةِ ١٩ ألفًا لا تزيد ..

ولعلَّ الملكةَ فى خلالِ فَرحتـها بما نالتـه مـن نصيـبٍ عظيـمٍ فـى الغنيمةِ الأسبانية قد رقَّ قلبُهَا لصَديقـهَا القديـمِ «رالى»، فَوَهبـت لـه الحريةَ منْ جَديد !

# أحلام مدينة الذهب

أخذ بريقُ الذهبِ ونفاسةِ الكنوز التى كانت فى حَوْزة الأسبانيين، والتى رآها الإنجليزُ بأعينهم فى السفينةِ الأسبانية المأسُورةِ «مادر دى ديوز»، أخذ ذلكَ سَبيله إلى نسجِ الأوهامِ وخلْقِ الأساطير.

فانتشرت شائعاتٌ قويةٌ بأنَّ أمريكَا الجنوبية أرضٌ غنيةٌ بالكنوز التى لا تقدّر بمالٍ، وأنَّ فيها منَ الثرواتِ ما لا يصلُ إليه عقلُ الإنسانِ.

وكانَ البحارةُ والملاحونَ العائدونَ من حملاتِ المحيطات والبحار يحملونَ معهم قصصًا غريبةً عنْ عَوَالم عَجيبة وبلادٍ عَجيبة لا تكونُ إلاَّ فِى الخيال .

وكانَ يذهبُ خَيَالهم بعيدًا فيخلقونَ أجناسًا منَ الأممِ غير مَا عرفه الناسُ، ويخلقونَ مدنًا غيرَ المدنِ التى يألفهَا كلُّ إنسانٍ، ويخلقونَ صنفًا من النساءِ يُحاربنَ فى شجاعةٍ وتضحيةٍ وإقدامٍ أكثرَ مما يحاربُ الرجَال. وسادَ الاعتقادُ الذِى كادَ يقاربُ اليقينَ بأنَّ هناكَ فى أمريكا الجنوبية مملكةٌ تقعُ بينَ حوضى نهر «أورينوكو»، و«الأمازون»، كأنها الجنةُ أو الفِرْدوس .

ونُسجَت حولَ هذِه الجنة التِى يصعبُ الوصُول إليها الحكاياتُ والخرافاتُ والأساطيرُ.

فنساءُ هذه المملكةُ الخياليةُ يقاتلنَ كما يقاتلُ الرجَال، بلْ هنَّ أشد منهم بأسًا، وأكثر إصَابة للهدفِ، وأصبر عَلى القتالِ .

ومخلوقاتُ هذِه الأرضُ هم قبائلٌ منَ الجنسِ البشرِى، ولكنَّ رءُوسَهُم تنبتُ منْ صُدُورهم! لاَ كما تظهرُ رءوسُ بقية الناسِ منْ فوقِ الأكتافِ .

وأشجارُ هذِه المملكة لاَ تَضِنُّ[1] بثمرةٍ مُغذيةٍ للإنسَان .

ومدُنُ هذِه المملكةُ مبنيةٌ كلُّها من خَالص الذهبِ الوهّاج، وترتفعُ شَاهقة عَلى جبالٍ منَ الذهبِ الذِى يخطفُ بريقُه الأبصَار !

ولم تكُن الأساطيرُ حولَ هذِه المملكةِ الذهبيةِ تُروى عنْ طريقِ الحكاياتِ فَحَسْب، وتنتقلُ منْ فم إلى أذنٍ كما تنقلُ الحكاياتُ، بل كانتْ تُصور على الورقِ بصور تُثِيرُ الخيالَ .

ولا يُعلم عَلى سبيلِ اليقينِ لحسَاب منْ كانت تُحَاك هذِه الحكَايات، وتُروى هذِه الخيالاتُ؟ ولكنْ منَ المؤكدِ أنَّ الإخوانَ اليسوعيينَ (Jesuit Friars) كانَ لهم نصيبٌ كبيرٌ فِى اختراعِ هذِه القصصِ الشائقةِ لكى يحملُوا المغامرينَ وطلاّب الثراءِ عَلى ارتيادِ هذِه المجاهلِ الشاسعةِ التِى لم تطأهَا أقدامُ الأوربيينَ، وبذلكَ يمهدونَ الطريقَ لدخُولها والاسْتيطانِ فيها .

---

(١) ضَنَّ به عَليه: ضِنًّا وضَنَانَةً: بَخِلَ بُخْلاً شَديدًا.

ولكى لا تكُون هذِه المملكةُ الذهبيةُ المزعومةُ مجردَ خيالٍ، رسَمت الشائعاتُ أو رَسَم لها المشيعونَ خرائطَ مصَورة، أو مُصَورات جُغرافية، وحدَّدوا تخومَ[1] هذِه المملكة، ووضعُوا فى وسطهَا العاصمةَ الذهبيةَ وأسموهَا مدينةَ «مَانوا»، أو «إلدرادو» - أو مدينةَ الذهبِ - وجعلُوا مقرَّ هذِه المدينةِ فِى وسطِ بحيرةٍ موهُومةٍ أسموهَا بحيرة «باريما» (Parima).

ولم يكُن اسمُ «باريما» فى الحقِّ إلا علمًا على نهرِ «باريما» الذِى وصفَ الهنودُ الحمرُ فيضَانه كلَّ عامٍ وصفًا رائعًا عَلى أراضِى السافانا الشاسعة المترامية الأطرَاف. فلم يكنْ هناكَ بحيرةٌ بهذَا الاسمِ فى تلكَ البقاعِ . ومنْ عجبٍ أنَّ هذَا الخطأ الجغرافى حولَ وجودِ هذِه البحيرةِ المزعومةِ قد ظلَّ بعدَ عصرِ السير«ولتر رالى» بثلاثةِ قُرون، فقد طُبعت فى القرنِ الماضى خريطةٌ لأمريكا الجنوبية، وَرُسمت فيها بحيرةٌ أسميت «البحيرةُ البيضاءُ» كأنها تُقابل بحيرة «باريما» التِى رسمَهَا رالى عَلى خَريطته فى أواخرِ القرنِ السادسِ عَشَر !

***

كانت حكاياتُ مملكةِ الذهبِ، وأسَاطير مُقاطعة جيَانة الغنيةِ فِى أمريكا الجنوبية، وخيالات مدينةِ «إلدرادو» الموهومةِ تعاودُ خيالَ المغامرِ الجرىء «ولتر رالى» منْ حينٍ إلى حينٍ. وهى إذَا كانت فى أذنِ

---

(١) تُخُوم: حُدُود .

الرجلِ الإنجليزى العادِى حكايةً للتسْليةِ أو قِصّة مِنْ قصصِ المغامراتِ، فإنها كانت عندَ «رالى» عَقيدةٌ راسخَةٌ، إلى حدٍّ أنه كانَ يجمعُ لها الأخبارَ من أفواهِ الملاحينَ والأسبانيينَ، وكان يجمعُ لها الخرائطَ والرسومَ، ويجلسُ فى غرفةٍ هادئةٍ للمطالعةِ مِنْ غرفاتِ إحْدى قُصُوره الشّاهِقة، فيتتبعُ بأصابعِهِ الدقيقةِ اللطيفةِ نهرَ «أورينوكُو»، ونهرَ «الأمازُون»، كأنه يريدُ أن يصلَ إلى الهَدَفِ بإصْبعه قبلَ أن يصلَ إليه بعدَ أسفارٍ ورحَلَات !

وكان «ولتر رالى» يتتبعُ تاريخَ الاستعمار الأسبانى فى أمريكَا الجنوبيةِ بشغفٍ عظيمٍ، كما كانَ يتتبعُ قصَصَ المغامرينَ والرواد والرحَّالينَ الذينَ حَاولوا الوصُول من قبلهِ إلى هذِه الأرضِ التِى تفيضُ بالثراءِ والأحْلامِ !

وكثيرًا ما كانَ يعلمُ المصيرَ المحزنَ والخاتمةَ الأليمةَ التِى صارَ إليها من سارَ قَبله منَ الروادِ، واجترءُوا عَلى اكتشافِ ذلكَ الكَنْزِ المجهُول..

ولكنه لم يبالِ على الإطلاقِ بهذه النهاياتِ الكئيبةِ والتجاربِ الفظيعةِ التِى لقيهَا قَبله ثمانيةٌ أو تسعةٌ مِنَ المغامرينَ .

ولعلَّ منَ الطريفِ هُنَا أنْ نذكرَ أسماءَ بعض هؤلاءِ الروادِ الذينَ ذَهبوا فِى كشفِ أواسطِ أمريكَا الجنوبية إلى أبعدَ الحدُود. حتى أدَّت سلسلةُ مُغَامراتهم وجُهودهم إلى اكتشافِ كلِّ شبرٍ منَ الأرضِ فى ذلكَ النصفِ الجنوبى مِنَ العالمِ الجديدِ .

ولعلَّ أولَ هؤلاءِ الروَّادِ المغامرينَ هو الرحَّالةُ الألمانى «أمبروزفون ألفنجر» الذِى ذهبَ فى سنة ١٥٣٠ - أى قبل «ولتر رالى» بأكثرَ منْ نصفِ قرنٍ - إلى أقْصى مَا استطاعَ أن يصلَ إليه فى وسطِ فنزويلا (Veuezuela) . ولكنَّ المؤنَ نفدَت منْ رجَاله فأرسلَ خمسةً وعشرينَ مِنْهُم ثانيةً إلى شاطئ الحيطِ ليحملُوا له الزادَ من بعضِ السفنِ التِى قد يتصَادفُ مرورهَا .

ولكنَّ هؤلاء الرسُل الباحثينَ عن المؤنِ أبوْا أن يعودُوا إلى مكانِ قَائِدهم لطولِ مَا لاَقُوه من العنتِ[1] والشدَّة، وتركُوه هو وبقية رجالِ الحملةِ يموتُ جُوعًا، أو يتعرضُ للسهامِ المسممةِ البعيدةِ المرمَى التِى كانَ الهنودُ الحمرُ يتقنونَ قذفهَا إلى مدًى بعيدٍ !

وبعدَ رحلةِ «ألفنجر» بعشرِ سنواتٍ كاملةٍ - أى فى سنة ١٥٤٠ - خرجَ «جونزالو بيزارو» الأسبانى وهو شَقيقُ «بيزارو» مستعمر «بيرو» (Peru) فى حملةٍ يكتشفُ بها أرضَ «إلدرادو» الخياليةِ الذهبية، وكانت معه قوةٌ عسكريةٌ كبيرةٌ، فقسمهَا عندَ أحدِ فروعِ نهرِ «الأمازُون» إلى فرقتيْنِ، ذهبتْ إحْداهما تحتَ قيادةِ «أوريلانا» الذِى ظَلَّ يتابعُ هذا النهرَ العظيمَ حتَّى مَصَبه فى المحيطِ، فكانَ بذلكَ أولُ أوربى يفعلُ ذلك .

ولكنَّ «أوريلانا» كانَ هنَا عَلى ساحلِ البحرِ قد بلغَ منه الجهدُ مبلغًا، وقد تعرضَ لأخطار حمدَ الله على النجاةِ منها، فتركَ رجال الحملتينِ

---

(١) العَنَت: الشدَّةُ والمشَقَّة.

جميعًا وركبَ البحرَ عائدًا إلى أسبانيا، مُعلنًا أنّ العودةَ إلى الحملةِ الثانيةِ لم تكنْ إلاَّ مخاطرةً حمقاءَ لا يجوزُ له أنْ يقدمَ عليها مِنْ جَديد !

والحقُّ أنَّ «أوريلانا» بهذا الهروبِ القبيحِ من ميدانِ العملِ كانَ خائنًا لوطَنه، وخائنًا لواجبهِ، وخائنًا لزملائه في الرحلةِ. وقد استحقَّ جزاءَ الخائنِ الجبَان، فضنَّ عَليه التاريخُ بأن يُسمى نهر «الأمازُون» باسمه مَعَ أنه كانَ أوْلَى بذلكَ - وسُمى ذلكَ النهرُ العظيمُ باسمِ نساء الأمازُون المحاربَات المتصفَاتِ بالشَّجَاعة، واللاَّئِى رآهنَّ أوريلانا لأولِ مرةٍ، فكانَ أولُ أوربى تقعُ عينُه على نساءِ الأمازون.

ولعلَّ المفارقةَ العجيبةَ بينَ جبنِ أوريلانا، وشجاعةِ نساءِ الأَمازُون هِيَ التِى أوحَتْ إلى الجغرافيينَ بتسميةِ هذا النهرِ العظيمِ بذلكَ الاسمِ الجميلِ!

وقامتْ بعدَ ذلكَ حملاتٌ صغيرةٌ متعددةٌ لكشفِ مَدينةِ «إلدرادو» فى أرضِ الذهبِ والأحْلاَم. وأشهرُ هَذِه الحملاَت والرحَلاَت كانت تلكَ التِى قامَ بها فى سنة ١٥٦٠ «بدرودى أورزوا» ، وكانَ فِى عُصبته شخصيةٌ تُعَدُّ أكثرُ المهاجرينَ الأسبانيينَ هولاً، وأشدّ المغامرينَ خُبثًا واحتيالاً، وأطْرفهم وأغْربهم حَوَادث ومفَاجَآت.. وهى شخصيةُ «لوب داجيرى» الذِى تمثلُ قصةُ حياته بالأحداثِ المثيرةِ، والمكايدِ والدسائسِ والمنازعاتِ مِنْ أجل النساءِ والأموالِ.

وقد اشتهر «لوب» بمهَارته فى إقامةِ الملوكِ وخَلْعهم، وتوليةِ الحكامِ وعَزْلهم، وبدأ تَجَاربه بخلعِ «أورزوا» أولا وَقتلَهُ آخر الأمرِ..

وولى «فرناندودى جوزمان» مكانَ الأمير المقتول، ثم بعثَ إلى «فيليب الثانى» ملك أسبانيا يُخبره أنَّ أميرًا جديدًا تولَّى الحكمَ فى مستعمرة «بيرو». ولم يكدْ «جوزمان» يتمتعُ بلذةِ الحكمِ حَتى كانَ مصيره القتل أيضًا على يدِ «لوب» الأثيم.

وفى خلالِ زعامة «لوب» الغادرةِ العاجزةِ للمستعمرينَ الأسبان فى أمريكا الجنوبية، أخذَ رجالُه وأعوانُه يقطعونَ أمْيَالاً فى عقمٍ وقتلٍ ونهبٍ وإثارةٍ للرعبِ فى نفوسِ النزلاءِ والمواطنينَ عَلى السَّواء. وقد امتدت غَارَاتُهم مَا بينَ «بيرو»، و«البرازيل»، و«جيانة»، حَتَّى مصب نهر «أورينوكو» على المحيط.

وكانَ آخرُ الحملاتِ الأسبانيةِ إلى مدينةِ «ألدرادو» الخياليةِ قُبيل عصرِ السير «ولتر رالى» هى الحملةُ التِى قامَ بها «بريو» (Berreo).

وليسَ أدلُّ على شجاعةِ «رالى» ومقدرتِهِ الفائقةِ منْ تَصْميمهِ عَلى أنْ يسيرَ فى طريقِ أولئكَ المخاطرينَ فى مجاهلِ هذِه القارةِ الشاسعةِ، مَعَ عِلمه بالمخاطرِ التِى تعرضُوا لها، والمهالكِ التى وقعُوا فيها. ولكنه كانَ حريصًا على أن يتجنَّبَ أخْطَاءَ هُم، ويستفيدَ منْ عَثَراتهم، ويتعلَّم منهم أنفعَ الدروسِ.

وسنتحدثُ فى فصلٍ مقبلٍ عنِ النجاحِ الذِى أحْرزه، ولكنْ مِنَ الاعترافِ بالجميلِ هُنَا أن نشيرَ إلى المعارفِ القيمةِ التِى أضَافها إلى العلمِ عَنْ جُغرافية هذِه الأرض الشاسِعَة ونباتهَا وحَيوانها، على

حينَ زَرَعَ منْ سبقُوه مِنَ الأسبانيينَ حقدًا فى القلوب، ولم يُضيفُوا إلى التاريخِ إلا أخبارًا عنِ المنازعاتِ والحروب ..

***

فى وسطِ هذا الجو المملوءِ بالقصصِ اللذيذةِ والحكاياتِ المثيرةِ عنْ أرضِ «ألدرادو» الذهبيةِ، قامَ السير «ولتر رالى» ليرضِى فِى نفسيه روحَ المغامرةِ التِى كانت تُلازمه طول حَيَاته. وأخذَ الملاحُ المغامرُ يعدُّ العدةَ لرحلةٍ استكشافيةٍ إلى هَذِه الأرضِ التى تحدَّثت عنها الألسنةُ، وشاعتْ حَولها الأساطير.

وفى أوائل سنة ١٥٩٤ بينما السير «ولتر» يستعدُّ للسفرِ، وَيُهيئُ السفنَ إذا بزوْجتهِ تكتبُ خطابًا مُؤثرًا إلى السير «روبرت سيسيل» تتوسلُ إليه أنْ يحاولَ منعَ زوجهَا منَ السفرِ فى هذِه الرحلةِ التى قد تكونُ وخيمةَ العواقبِ، أو سيئةَ النتائجِ .

واستجابَ «رالى» لتوسلاتِ الزوجةِ المخلصةِ المحبوبةِ منْ ناحيةٍ، وحاولَ تحقيقَ فكرةِ الحملةِ الاستكشافيةِ منْ ناحيةٍ أخرى. وإذا كَان هو لا يستطيعُ الرحيلَ هذِه المرةَ تحقيقًا لتوسُّلاتِ زوجَته، ومحاولاتِ صَديقه «سيسيل» ، فإنه يستطيعُ أن يكلفَ من رجَاله الذينَ يثقُ بهم ويعتمدُ عليهم مَنْ يقومُ بهذِه الحملةِ ويعودُ إليه محملاً بأنباءِ هذِه البلاَد .

ولم يجدْ «رالى» فى قائمةِ أنصارهِ ورجَاله ومسَاعديه المخلصينَ أقدرَ على هذه المهمةِ الشاقةِ من تَابعه الوفى القديمِ

«يعقوب ويدون» الذِى قامَ على الفـور بالسـفرِ فـى غمـراتِ المحيـطِ، مـزودًا بتعليمـاتِ أسـتاذِه البحّـار العظيـم وتوصيّاتـه بـأن يكتشـفَ حوضَ نهرِ «أورينوكو» كُلِّه، ويكتشفَ فروعَـه التِى تجتـازُ الأرضَ التِى كان يسميهَا الرحالةُ الأسبانُ أرضَ «جيانـة»، والتِى تقـع الآن فى مكانِ جمهورية «فنزويلاَ» الحالية .

وبعدَ سفرٍ طويلٍ فى المحيطِ وصلت سـفينةُ «ويـدون» إلى جزيـرةِ «ترينداد» (Trinidad) التِى تقـعُ قريبًـا منْ مصـبِّ نـهر «أورينـوكو» الواسِع الكبيرِ. وهنَا اسـتقبلَهُ الحـاكمُ الأسـبانى «أنطونيـو دى بريـو» الذِى سبقَت الإشارة إليه. وأكرمَ الحاكمَ الأسـبانى وفَادَتـه، واسـتقبلَه استقبالا حارًّا، على عكسِ ما كانَ يُظَنُّ مـن رجُـلٍ مثْلِـهِ -ليكشـفَ خَبيئته[1]، وليعلمَ الغرضَ الذِى جَاء منْ أجْله إلى هـذِه الأرضِ التِـى لم يكنْ يتوقعُ الأسبانيونَ لهم فيها مُنَافسًا ..

وكَانت القصصُ التى قصهَا «بريو» عنْ رحلتـه فـى حُـوض نـهر «أورينوكو» وأرض «جيانة» مُغرية مُثيرة لخيالِ ويدون. فاكتفَى منَ الرحلةِ بسماعِ هذه الحكاياتِ الغريبةِ، والقصصِ الشـائقةِ، وعَـاد إلى إنجلترا ليبلغَ أُستاذَه بما سمعَ كأنـه رآه رأىَ العـين! وكـان ويـدون نفسُـه رجلاً بعيـدَ الخيـالِ، قَـوىَّ المخيلَـةِ، فأضـافَ إلى هـذِه القصـصِ مـنْ خَياله ما أثارَ الشوق فى نفسِ أُستاذه الجَرِىء.

---

(١) الخَبىءُ : ما عُمِّىَ من شىءٍ ثم سُئِلَ عنه.

وعَلى الرغمِ منْ أنَّ «ويدونَ» عادَ إلى إنجلترا غنيًّا بعددٍ لا حدَّ له من القصصِ والأساطيرِ، فإنه عَاد فقيرًا برجَاله الذينَ كَانوا معه فى الرحْلةِ، فقد اعتقلَ «بريو» كثيرًا منهم بعدَ أن أساءَ الظنونَ بهم وبغرضِهِم منَ المجِيء إلى هَذِه البلادِ !

واستمعَ «رالى» بشغفٍ وشوقٍ إلى حكَاياتِ تلميذِه «ويدون» عن أرضِ الذهبِ والأحلامِ، كما استمعَ إلى ما كانَ يقصُّه الملاحونَ الإنجليزُ والأسبانُ الذينَ وقعُوا فى يدِه، عنْ ذهبِ هذِه الأرض وكنوزهَا التى لا تتصورهَا العقولُ.

واستغْرقت حملةُ «ويدون» الكَشفيةُ التِى أرسلهَا السير «ولتر رالى» عَامًا كاملاً منْ عمرِ الزمانِ، ولو أنها لم تُحققْ غرضًا إلا أنها كانتْ كافيةٌ لأنْ تثيرَ فى نفسِ «رالى» التَّحَمُّسَ إلى الكشفِ من جَدِيد .

## إلى أرض الذهب

لمْ يجد السير «ولتر رالى» مَعنى للبقاءِ والتخلُّفِ فى إنجلترا بينما «جيانة» و«إلدرادو» - بأحلامهَا وصُفرة ذهبهَا بالأساطيرِ المشرقةِ التى تُروى عنهَا - تجذبُ أصحابَ الطموحِ إليهَا، وتدعُو المغامرينَ وطلاَّبَ الثراءِ وعشَّاقَ الخيالِ إلى زيَارتها.

وقد كانَ «رالى» مدفوعًا إلى ارتيادِ هذِه الأرضِ البعيدةِ بعواملَ كثيرةٍ، لقد كانَ الرجلُ واسعَ الثراءِ بما مَنحته الملكة «إليزابث» منْ هباتٍ عظيمةٍ ومنحٍ لا حَصْرَ لها، ولكنه - ككلِّ إنسانٍ - لا يرفضُ زيادَةَ الثراءِ. فالغنى والحصُول على المالِ كان عاملاً لا يغفلُ منَ الحساب عندَ الترجمةِ لهذا المغامرِ العظيمِ! وقد كان أمامَه فى إنجلترا فرصٌ كثيرةٌ لكثرةِ الثراءِ، وطرقٌ كثيرةٌ للحصولِ - وهو فيهَا - عَلى مَا يشتهِى منَ المالِ. ولكنْ لا شكَّ أنَّ جبالَ الذهبِ وحجَارةَ الذهبِ التِى ترتفعُ فوقهَا مدينةُ «مانوا» - أو «إلدرادو» الخياليةِ - كانت أكثرَ إغراءً منْ كلِّ كنوزِ الأرضِ التِى كَانت بينَ يديهِ!

ولكننَا نظلمُ السير «ولتر رالى» ظُلمًا كبيرًا إذا جعلْناه مدفوعًا إلى كشفِ «جيانة» بدافعِ الحصولِ عَلى الذهبِ فقط. لقد كانَ مركزُ الرجلِ الأدبى ونفوذُه الاجتماعى، ومنزلته عند الملكة «إليزابث» يتأثرُ بحادثةِ سجْنه فى برجِ لندن بعدَ زواجِه المعروفِ وبعدَ أن هبطَت أسْهُمُه كثيرًا فى بلاطِ الملكةِ المتقلِّبة ..

فإذا استطاعَ أنْ يكتشفَ مشروعًا يدرُّ على إنجلترا الثراءَ الواسعَ، ويصبُّ عليها الذهبَ من الكنوز المخبوءةِ فى أرضِ أمريكا الجنوبية، فإنه بذلكَ يستطيعُ أنْ يستردَّ مَكَانته فى القصرِ، وتعود قيمةُ أسهمِهِ هناكَ إلى الصُّعود.

على أنَّ هناكَ عاملاً لا يجوزُ أنْ نغفلَهُ، إنصافًا للرجلِ الذى كانت فكرةُ الكشوفِ تستولى عليه إلى حدٍّ كبيرٍ. لقد كانَ الرجلُ - ككُلِّ إنجليزى مُعَاصر له - ينظرُ إلى أسبانيا وتوسُّعها الاستعمَارى نظرةَ الخوفِ والقلقِ، فلماذَا لا يكونُ لإنجلترا فى العالمِ الجديدِ مكانٌ مثل مَا للأسبَانيينَ؟ ولماذَا هذَا الاحتكارُ الأسبانى للتجارةِ العالميةِ الواسعةِ مع أن إنجلترا كَبيرة الآمالِ فى هذَا الميدانِ العظيمِ؟!!

وإذا كانتِ الدُّنْيَا الجديدةُ - أو أمريكَا الشمالية والجنوبية - ميراثًا حلالاً لدولِ العالمِ القديمِ، فأينَ نصيبُ إنجلترا - الدولةُ البحريةُ التى هَزَمَت «الأرمادا» الأسبانية - منْ هذَا الميراثِ الكبيرِ؟

لقد صَمَّم رالى هذِه المرة - وبعدَ عودةِ «ويدون» المشحُونة بالقصصِ والأساطيرِ - أن يذهبَ بنفْسِه إلى هذِه الأرضِ المشتهاةِ مهمَا قامَ فِى طَرِيقه مِنْ توسُّلاَتِ زَوْجته، أو التماسَاتها عَلى يدِ أحدِ أصْدقَائه.

واستصدَرَ «رالى» إذنًا منَ الملكةِ «إليزابث» بالسفرِ، عَلى شريطةِ أن لا يعتدِى فى رحَلاته على حدودِ أرضٍ منَ الأمراءِ

المسيحيينَ. وكان هذا الشرطُ يُكتب دائما فِى كلِّ إذن تُصدره الملكةُ للروادِ والمكتشفينَ، حتى يتحملُ الـروادُ - أنفسُـهم - مسـئوليةَ مـا يقعُ بينهم وبينَ الدولِ الأُخرى منْ نزاعٍ وصُرَاع، وبذلكَ تبرىءُ إنجلترا ذمتها رسميًا من تهمةِ الاعتداءِ عَلى حقوقِ الآخرينَ!

وبدأ السير «جلبرت» - أخو السير «ولتر رالى» غير الشقيق - يجمعُ رجـالَ هـذِه الحملـةِ الاسـتكشـافيةِ وملاحـيهَا عـنْ طريـقِ الإلـزامِ والتسخير، لا عنْ طريقِ الرغبةِ والتطوُّع، لأن الناسَ كانُوا متـهيبينَ القيام برحلةٍ مجهولةِ المصيرِ، على الرغمِ مما نُسـج حـولَ أرضـهَا مـنَ الأساطيرِ.

وتشاءُ المصادفاتُ أن ينتشـرَ فـى إنجلـترا فـى ذلـكَ الحـينِ طـاعونٌ شـديدٌ، فكـانت مهمةُ السـيرِ «جلبرت» شَـاقّة فـى جمـعِ الرجـالِ حتى لا يتسربَ إلى سفنِ الحملةِ من يحملُ جراثيمَ هذا الوبـاءِ اللَّعـينِ .

وفـى ٩ فـبراير سـنة ١٥٩٥ أبحـرَ السـير «ولـتر رالى» مـنْ مينـاء «بليموث» ومعه أسطولٌ من السـفنِ يبلـغُ عـده خمسًـا مـنَ السـفنِ الصغارِ التِى بُنيت على نفقةِ «رالى» ومنْ جيبهِ الخـاص، فلـم يكلِّـفْ الدولةَ فى هذِه الحملةِ إلا جمعَ الرجالِ.

واستطاعَ «رالى» ، عن طريقِ صَديقه السير «روبـرت سيسـيل»، أنْ يثيرَ اهتمامَ الملكةِ بهذِه الرحلةِ، كما استطاعَ أن يقنـعَ أميرَ البحـرِ الإنجليزى بضَرورتها، لفتحِ مَنافذ جَديدة فى طريقِ سـيادةِ إنجلـترا فـى

البحار. وهنا أذنت له الملكةُ - فى فورةِ التحمُّسِ - أن يتخلَّص من الشرطِ القديمِ بعدمِ الاعتداءِ على حُقوقِ الأمراءِ المسيحيينَ، وسمحَت له بأنْ يحاربَ الأسبانيينَ فى أىِّ مكانٍ تجمعهُ بهِم المصادفاتُ .

أخذَت سفنُ الأسطولِ المكتشفِ الخمسة تخترقُ مياهَ المحيطِ ستةَ أسابيع، حَتَّى بلغتْ جزيرةَ «ترينداد» فى ٢٢ مارس. وهنا بدأ «رالى» فى تنفيذِ خطةِ العدوانِ وشنِّ الغارةِ على الأسْبَان، فهجمَ على مدينةِ «سان جوزيف» واستولَى عليهَا. وفى أثناءِ الموقعةِ بينَ «رالى» والأسبان وقعَ «بريو» الحاكمُ الأسبانى أسيرًا فى يدِ الإنجليز .

ولعلَّنا نذكرُ جيدًا اسمَ ذلكَ الحاكمِ «بريو» الذِى قَابله «ويدون» الإنجليزى فى «ترينداد» منذُ عام، والذِى أحسَّ استقبالَ رسولِ «ولتر رالى»، ولكنه فى الوقتِ نفسِه كتبَ إلى ملكه «فيليب الثانى» يقترحُ احتلالَ أسبانيا السَّريع للبلادِ المجاورةِ لنهرِ «أورينوكو»، حتى لا تقع عليها عيونُ الإنجليزِ المتطلعينَ !

وَلَمْ يتوانَ «فيليب» ملكُ أسبانيا فى تنفيذِ هذَا الاقتراحَ الذِى يضمنُ له سلامةَ الجوار، ويضمنُ لمستعمراتِهِ فى أمريكا الجنوبية الأمَانَ. فأرسلَ حملةً أبحرت منْ ميناء «سان لوكار» (San Lucar) الأسبانية فى نفسِ الوقتِ الذِى أبحرت فيه حملةُ السير «ولتر رالى» من ميناء «بليموث».. ولكنها لم تَصِلْ إلى جزيرة «ترينداد» إلا فِى شهرِ إبريل، أى بعدَ وصولِ أسطولِ «رالى» بأسَابيع .

وكان السببُ الذى حاربَ رالى منْ أجْله الأسبان فى أمريكا الجنوبية قويًا، فإنه أرادَ أن ينتقمَ للرجالِ الإنجليزِ الذينَ اعتقلَهُم «بريو» فى العامِ الماضِى والذينَ كَانُوا بصحبةِ «ويدون» إلى جزيرةِ «ترينداد». أليسَ هَذا الاعتقالُ سببًا لأن يُعَاقب عليه الأسبَان ؟

وعلى الرغمِ منْ أنَّ الإنجليزَ أحرقُوا مدينةَ «سان جوزيف»، وانتصروا انتصارًا هائلا على رجالِ الحاكمِ «بريو»، فإنَّ السير «ولتر رالى» قد عقدَ أسبابَ الصداقةِ بينه وبين «بريو»، وآثرَ أنْ يبقى على حَيَاته ليأخذَ منه معلوماتٍ ومعارفَ عَنْ هذِه البلادِ بدلَ أن يرسِلَه إلى الإعدَامِ.

وهناكَ فى خلالِ أحاديثِ الود التى كانت تدورُ كلَّ يومٍ بينَ الرجلينِ أخرجَ «بريو» منْ أوراقهِ الهامةِ وَثيقَةً رسْمية، يعترفُ فيها رَجُلٌ أسبانى مُغامر، وهو عَلى فراشِ الموتِ قُبيل الساعاتِ الأخيرةِ منْ حياته، بأنه وقع أسيرًا فى يدِ الهنودِ الحمرِ بحوضِ نهر «الأورينوكو»، فَحَملوه إلى مدينة «مانوا» حيثُ اعتقلَ فيها بضعة شهور، فرأى فيها منَ العجائبِ ومنَ الغنى العظيمِ ما لا يخطرُ على بالِ إنسَان !

وقد أضافت هذِه الوثيقةُ المكتوبةُ إلى عقيدةِ السير «ولتر رالى» فِى وجودِ «إلدرادو» الذهبية عنصرًا جديدًا قويًا من عناصرِ التصْديق. وازدادَ إيمانُهُ بوجودِ هذِه الأرض كما كانَ يؤمنُ بها المغامرونَ الطَّامحُونَ منَ الأسبانِ.

ولم يقم منَ الأسبابِ بينَ «رالى» وبينَ أسِيره الحاكمِ الأسْبَانى فِى «ترينداد» مَا يحملُه على كرَاهتـه، بَلْ عَلى الضِّدِّ مِنْ ذلكَ أحَبه «رالى»، وأنسَ إلى أحَاديثه وإلى قصصِهِ المثيرةِ العجيبة، ولو أنه كانَ يستوحشُ من حوادِثِ قَتله للهنودِ الحمرِ فِى أمريكا الجنوبية، حتى لَقَّبه بلقبِ «سفّاح الهنود».

وقد شاهدَ «رالى» بعينهِ خمسةً منْ زعماءِ الهنودِ مُكَبلين فِى الأغلالِ، حيثُ احتواهُم سجنٌ ضيقٌ قذرٌ كئيبٌ. فكانَ خلاَصهم من هذا السجنِ الأليمِ عَلى يَدِه.

***

لم يَكُنْ «بريو» الحَاكمُ الأسبانى فى «ترينداد» رجلاً عَادِيًّا أو حلوَ الحديثِ فقط كما يدلُّ ظَاهره.. لقد كانَ مُحَارِبًا ممتازًا جَرِينًا منْ أهالِى مملكةِ قِشْتَالة الأَسْبانية، وكانَ عَلى شَجاعته وجُرأته مُجَاملا لطيفَ المَعْشرِ. وكانَ فوقَ ذلك يتميزُ بدهاءٍ واحتيالٍ. ولكنه صَادف «رالى» الذِى أوْصله إلى أرفعِ المناصبِ فى قصرِ «إليزابث» اللطف والمجامَلة والدَّهَاء..

وقد حاولَ بريو بدَهَائه وحَدِيثه الحلْو أن يثبطَ عزِيمةَ «ولتر رالى» ويصْرفه جملةً عن مشروعِ اكتشافِ «جيانة» و«أورينوكو» وما ورَاءهما منْ مملكةِ إلدرادو الذهبية .

وحاولَ «بريو» بذكَائه أن يصفَ الصُّعُوباتِ والعقباتِ والأهوالِ الشديدةِ والمخاطرِ العظيمةِ التى تقومُ فِى طريقِ اكتشافِ هذِه البلاد!

ولم تكنْ محاولاتُ «بريو» فِى سبيلِ صَرْفِ نظرِ السير «ولتر» عنِ القيامِ بالكشفِ إلاَّ لِعلمه بأنَّ حملةً أسبانيةً قد أرسلهَا فعلاً الملك «فيليب» الأسبانى وأنها الآن فى طريقهَا إلى «ترينداد» !

ولكن «رالى» لم يكن مَيَّالاً بسهولةٍ إلى تصديقِ هذِه الصعوبات التى يضعهَا له «بريو» فى طريقِ غرضِهِ إلى اكتشافِ مدينة الذهب.

فقد كان «رالى» أكثر دهاءً وأبعدَ ذكاءً منْ «بريو».. لأنه علم السببَ الحقيقى الذى منْ أجْله يُصر «بريو» على تثبيطِ[1] عَزِمته ..

إنَّ السببَ سهلٌ بسيطٌ لا يحتاجُ منَ القارئِ الكريمِ إلى تَخْمينٍ.. لقد كانَ «رالى» يعلمُ بطريقٍ سِرى خَاص، أنباءَ الحملةِ الأسبانيةِ القادمةِ منْ أسبانيا لغرضِ اكتشافِ مدينة الذهبِ تحتَ قيادةِ «دومينجو ديفيرا»..

ولكنْ كيفَ عَلم «رالى» هَذِه الأنباء؟

آه ! لقد استطاعَ «رالى» بذَكَائه ويَقظته وعُيُونه الذينَ بثَّهُم فى كلِّ مكانٍ أن يحصلَ عَلى الرسالةِ التى بعثها «بريو» إلى البلاطِ الأسبانى يطلب فيها إرسَالَ حملةٍ أو نَجْدةٍ سريعةٍ لتأْمين الأرضِ الأمريكيَّةِ المواجهةِ لجزيرةِ «ترينْدَاد» ، ولكشفهَا على يدِ الأسبان لاَ عَلى يدِ غيرهمْ منَ المنافسينَ !

---

(١) ثَبَّطَه عن الشيءِ: عوَّقه وَبَطَّأ به.

## بدء المغامرات

لم يكنْ السير «ولتر رالى» ممنْ تصْرفهم العقباتُ - صغيرةً كانتْ أم كبيرةً - عنِ الغرضِ الذِى وضَعوه نصبَ أعينهم. فحينَ حاولَ «بريو» أنْ يَصُده عَنِ الذهابِ إلى «مَانوا» مدينة الذهبِ لم يُصَدقه ولم يتأثر بكَلاَمه فى قليلٍ أو كثيرٍ.

وحينَ قامَ بينهُ وبينَ أحدِ قُواد أسْطوله سوءُ تَفَاهم عَلى بعضِ الأمور فإنه لم يبالِ أن ينفُضَ يَدَيه مِنَ القائدِ «بريستون» الذى لم يَعُد - وَهُوَ فى سَاعةِ الغضبِ - إلى الحملةِ ليبدأ معهَا الاشتراكَ فى المغامرةِ الجديدَة.

وحينَ انفصلَ عنه قائدانِ بحريَّانِ قربَ شَاطئ أسبانيا فى بدءِ الرحلةِ فإنه لم يُعَلق أهميةً كُبرى عَلى هَذا الانفصَال .

وهنَا اجتازَ « رالى» بسُفنه الخمسِ خليجَ «باريا» (Paria) أو الخليجِ الحزينِ (Sad Gulf) الذِى سُمى بهذا الاسمِ لكثرةِ الأخطَار والمهَالكِ التِى كانَ يصادفهَا البحارةُ والملاحونَ فيه، لاندفاعِ مياهِ نهر «أورينوكو» فيه اندفاعًا شديدًا يرفَعُ المَوْجَ كالجبَال، ويحدثُ فيه أعنفَ التياراتِ.

وكانت سفنُ «رالى» الخمسَة بأحجَامها الصغيرةِ تلعبُ بهَا الأمواجُ العاليةُ فى مياهِ هذا الخليجِ، حتى وصَف «رالى» هذا العبورَ العنيفَ بأنه أشدّ عنفًا وأكثرُ متاعبَ من عبور القناةِ الإنجليزيةِ فى أصعبِ أحْوالها، وأشد أهوالها .

وبعدَ اجتياز هذا الخليج ترك «ولتر رالى» أسطُوله المكون منَ القطعِ الخمسِ الصغيرةِ فى ميناء «لوس جالوس» (Los Gallos) فى أقصَى الطرفِ الجنوبى منْ جزيرةِ «ترينداد». وبدأَ يبحثُ عنْ مناجم الذهبِ الغنيةِ فى مدينةِ «مانوا» ..

ولم يكن أمامَ الملاحِ المغامرِ سبيلٌ إلى الوصولِ فى داخلِ أرضِ الأحلامِ إلا نهر «أورينوكو». فأعدَّ «رالى» لهذِه الرحلةِ أُسطولاً نهريًّا صَغيرًا مؤلفًا منْ خمسةِ قواربَ، ومائةٍ من الرجالِ، ومقدار منَ المؤنِ التى تكْفيهم لمدةِ شهرٍ كاملٍ .

وكانت تقديراتُ «ولتر رالى» عنْ طُولِ المسافةِ التى سيجتازهَا على طولِ نهر «أورينوكو» بَعيدة عنِ الصوابِ. وكانَ هذا الخطأُ فى التقديرِ راجعًا إلى المعلوماتِ الخاطئةِ التى أعطاهَا «بريو» منْ ناحيةٍ، وإلى خطأٍ فِى آلاتِ القياسِ وأجهزةِ البعدِ منْ ناحيةٍ أُخرى.

لقد أنبأه الحاكمُ الأسبانى «بريو» بأنَّ أرضَ «جيانة» تبعدُ عن ساحلِ المحيطِ مسافة ٦٠٠ ميل أكثر مما كانَ يقدره هو فى حِسَابه. ولكنَّ السير «ولتر رالى» لمْ يخبر واحدًا منْ رجَالِه بهذِه الحقيقةِ الجديدةِ خشيةَ أنْ يثُورُوا عليه استبعادًا للطريقِ، الذِى لم يكُونُوا يتوقَّعُونه بمثلِ هذا الطولِ العظيمِ ..

ووجدَ «رالى» نفسَه مُضطرًّا إلى أن يخدعَ رجَالَه، وأن يصورَ لهم الطريقَ إلى الهدفِ العظيمِ قَصيرًا جدًّا، أقصر مما يتصَوَّرونَ!

والحقُّ أنَّ المتاعبَ والصُّعُوبات التِى لاقوهَا فى خلاَل الطريقِ كَانت وراءَ الظنونِ، وفوقَ ما تتصوَّره العقولُ .

هُنَا مائة رجلٍ يزدحمونَ على خمسةِ قوارب غير ملائمةٍ ولا صَالحةٍ، فإذَا ما جاءَ الليلُ نامُوا على ظهور القواربِ بلا غطَاء، وهُم تحتَ وابلٍ منَ أمطار المناطقِ الحارةِ التِى لا تبعدُ عَنْ خطِّ الاستواءِ إلا بضعَ درجاتٍ مِنْ خطوطِ العرضِ الشمالية، فلا تكادُ ثيابُهُم المبللةُ بالمطرِ المنهمرِ تجفُّ تحتَ حرارةِ الشمسِ المحرقةِ حتى تعودَ إلى البَلَلِ منْ جديدٍ.. لأنَّ الأمطارَ هناكَ لا تنقطعُ إلا فتراتٍ قصيرةٍ.

ولم يكن طَعَامهم إلا اللَّحمُ الذِى كَان يتسربُ إليه الفسادُ بسرعةٍ غريبةٍ تحتَ الحرارةِ اللافحةِ، أو السمكِ المملحِ الذِى تفوحُ رائحتُهُ الكريهة - لشدةِ الحرارةِ أيضًا - فتشمئزُّ منه النفوسُ .

قُلنا من قبلُ إنَّ «رالى» لم يبالِ بتأخُّرِ «برستون» عَن مُتَابعة الحملةِ بعدَ أن انتظرُوه زمنًا غيرَ قصيرٍ. والحقُّ أنَّ هذَا الانتظَار للرجلِ المتخلفِ عنهم قد كلَّفهم ثمنًا غاليًا. فلو أنهم عَجَّلوا الصُّعودَ فى النهرِ مُبَكرينَ قبلَ ذلكَ لتفادوا موسمَ الفيضَانِ الذِى حَلَّ وقتُه الآن، فكانتِ المياهُ تندفعُ مِنَ المنبعِ إلى المصبِّ فى قوةٍ جَارفةٍ، وتيَّاراتٍ قَوية، ودَوى عظيمٍ.

فكيفَ يقوى مائةٌ منَ الرجالِ الذينَ أنهكهم تعبُ الرحلةِ، وحرارةُ الجو، وغرابةُ المناخِ عَليهم، وقلةُ الزادِ الصَالح، وكثرةُ المطرِ المنهمرِ..

كيفَ يَقْوى هؤلاءِ الرجالُ عَلى مقاومةِ التيارِ الجارفِ، والصعودِ إلى النهرِ فِي مُغالبةِ أمواجٍ مُتدافعةٍ قويةٍ لا قدرةَ لهم عَليها ؟

لو أنهم كانُوا هابطينَ منَ المنبعِ إلى المصبِّ لكانُوا سائرينَ مع التيارِ يحملُهم عَلى ظَهرِهِ القَوِى منْ غيرِ حاجةٍ إلَى تجديفٍ. ولكنهم كَانُوا صَاعدينَ فى مُضَادة التيارِ المنحدرِ العنيفِ، فكيفَ تستطيعُ أذرعتُهُم، معَ سوءِ التغذيةِ، وسوءِ الروحِ المعنويةِ أنْ تجدفَ لبلوغِ الهدفِ البعيدِ؟

وهنَا عزمَ «رالى» ورجَالُه على النزولِ إلى البرِّ حتَّى يتفادوا قوةَ التيارِ التِى لا حيلةَ لهم فى التغلُّبِ عليهَا. ولكنهم وجدُوا النزولَ إلى البرِّ والوصولِ إلى الأرضِ عملاً شاقًّا آخر، يكادُ يَكُون أصْعَب منْ مُغالبةِ التيارِ نفسِهِ. فقد كانت ضفافُ النهرِ الممتلئ بالفيضَانِ مملوءةً بأعشابٍ ونباتاتٍ وأوراقِ أشجارٍ، مما يحملُه السيلُ ويقذفُ به، وكلها تجعلُ الوصولَ إلى البر أمرًا مُسْتَحيلاً .

وأخذَ «رالى» يرفع منْ روحِ رجالِ الحملةِ، ويشجِّعُهم عَلى الصعودِ، ولم يترُكْ حكايةً من حكاياتِ مدينةِ الذهبِ التِى كان يسمعهَا هو بنفْسِهِ، إلا حكاهَا لهم وأعادَها عَليهم، وكانت حركاتُ يديه ترتفعُ فى أثناءِ الحكايةِ معَ حركاتِ المجاديفِ وهى تضربُ ماءَ النهرِ، فتبعثُ الشجاعةَ والأملَ فى نفوسِ رجَاله المجهدينَ !

وفجأةً تحولَ اليأسُ إلى أملٍ، وتحولَ العناءُ إلى بعضِ الراحةِ، وظنَّ رجالُ الحملةِ أنهم أصبحُوا من الهدفِ عَلى مَدًى قريبٍ. لقد تحوَّلت

«فنزويلا» أو تحولَ حوضُ نهرِ«أورينوكو» أمامَ أعينهم إلى شيءٍ كأنه الفردَوْس! فبدلاً مِنْ هذِه الشجيراتِ الصغيرةِ النابتةِ هنَا وهنَاكَ، رأوا أمامَهُم بسَاطًا كأنه القطيفةُ الخضراءُ، وقد ارتفعَت فوقه أشجارٌ عاليةٌ، بدَت لعينِ السير «ولتر رالى» وَلِشَاعِريته الرقيقةِ كأنَّ بستانيًّا من السماءِ قد غرسَهَا فى ذلكَ المكانِ الجميلِ! وجَاءت جماعاتٌ وأسرابٌ منَ الطيور الجميلةِ الملَونة تحومُ فوقَ رءوسِ المكتشفينَ، فبعثْ فِى نُفُوسهم منَ الأنسِ والبهجةِ ما أزالَ وحْشتهم القديمةَ. وكانت أشجارُ الفاكهةِ المختلفةِ الأنواعِ بُشْرى لهم بأنهم سَيحْصلون فى هذِه الأرضِ عَلى أشْهى الثمار!

ولكنْ أينَ الذهبُ وهو أغْلى ثمرةٍ يودُّونَ الحصُول عليهَا بعدَ هذَا الجهدِ العظيمِ؟

لقد استمرُّوا فى الصعودِ فى نهرِ «أورينوكو» حيثُ لاحتْ لهم مِنْ بعيدٍ جبالُ جيانة التِى تحملُ عروقَ الذهبِ المأمولِ.

واستطاعُوا أنْ ينزلُوا إلى البر فِى بلادٍ وجدوهَا عامرةً بالسكانِ واستقبلَهم أهلُها منَ الهنودِ الحمرِ بالترحَابِ والتكريم. وقَدَّموا لهم فاكهةَ «الأناناسِ» التى أسماهَا رالى «أميرةَ الفَوَاكِهِ». كما قدمُوا لهم شرابَ الأناناسِ المتخمر! فأحسَّ رجَالُ الحملةِ بنشوةٍ منه كالنشوةِ التى يجدهَا الشاربُونَ ! وقدَّمُوا لهم الترياقَ الذِى يُستعملُ فى علاجِ جراحَات السهامِ المسممةِ التِى يجيدُ رميهَا قبائلُ «الأَروراسِ» الذينَ

سيُصادفونهم على الشاطئ الأيسرِ للنهرِ بعدَ مَرْحلتهم المقبلةِ. وأمدُّوهم بدليلٍ خبيرٍ مَاهرٍ، هو الأخُ الأكبرُ لأميرِهم «توبارِيماكا».

واستمرُّوا فى المسيرِ حَتَّى بلغُوا مقاطعةَ «آرومايا» التِى كانَ يحكمها الملكُ «توبيا وارى». وكانَ هذا الملكُ الهَرِمُ الذِى بلغَ منَ العمرِ ١١٠ أعوام نشيطًا قويًّا كأقوى ما يكونُ الشباب، فقد قطعَ أربعةَ عشرَ ميلاً ليُحَيى السير «ولتر رالى» وقطعهَا ثانيةً فى العودَةِ، مَاشيًا على قدميْهِ فِى الحَالَتيْنِ من غيرِ أنْ تبدُو عليهِ أماراتُ[1] التعبِ .

(١) أمَارَاتُ : عَلامَاتٌ.

وحملَ هذا الملكُ الكريمُ إلى الضيفِ الأُوربى النازلِ عَلَيْهِ أصنافًا منَ لحمِ الغزالِ والدجاجِ، والطيور، والسمكِ، وأنواعًا ممتازةً من أطيبِ الفاكهةِ والخضرِ. ولم ينسَ أن يحملَ إليه الخُبْزَ والنبيذَ !

وقَدْ عقدَ «رالى» معَ هذا الملكِ الهرمِ حِلْفَ صداقةٍ مؤكدًا له حمايةَ الملكةِ «إليزابث» التى اعترفَ هذا الحاكمُ النشيطُ بحكمها .

ولم يفهمْ «توبيا وارى» منْ هَذا الحلْفِ وهذِه المظاهرِ الرسميةِ إلاَّ أنَّ الرجلَ الأبيضَ قد جاءَ إلى بلاَدِهم باحثًا عنْ معدنٍ أصفرَ اللونِ!

مُشتهيًا أنْ يحصلَ عليه بأيِّ ثمنٍ.. وقدْ أكدَ لهم الملكُ العجوزُ أنَّ هذا المعدنَ المأمولَ ليسَ منهم عَلى مَدًى بعيدٍ..

وهنا زَادَ الأملُ عندَ «رالى»، فحملَ رجَالَه عَلى متابعةِ الصُّعودِ فى النهرِ حتى يصلُوا إلى الذهَبِ المطلوبِ. واستمرُّوا فى الصعودِ بعدَ أنْ قطعُوا منذُ بدءِ المغامرةِ فى النهر مسافةً قدرهَا أربعمائة ميلٍ، وهنَا تحولُوا إلى نهرِ «كارونى» (Caroni) أحد فروع نهر «أورينوكو». وقد بلغَ منْ بُطءِ سيرِهم فى النهرِ ومُجَاهدتهم للتيار أنهم كانوا يقطعونَ فى الساعةِ ما يقلُّ عنْ مائةِ مترٍ ..

ولم يجدُوا الحالَ فى «كارونى» أحسنَ منه فى النهرِ الأصْلى نفسِه، فعادُوا إلى الصعودِ فى نهرِ «أورينوكو»، واستطاعُوا بعدَ جهدٍ جهيدٍ، وإعياءٍ شديدٍ أن يقطعُوا فيه أربعينَ ميلاً أُخرى. وهنَا كانت مُؤنهم على وشكِ أنْ تَنْفُدَ، وانقطعَ أملُهم فى أن يصلُوا إلى مدينة «مانوا» التى احتملُوا منْ أجلهَا ومن أجلِ ذهبهَا كلَّ هذِه الأهوالِ !

وهنَا صَمَّمَ «رالى» - على كراهَةٍ منه واشمِئْزَاز - أنْ يتوقفَ عنِ المحاولةِ إلى حينٍ، عَلى أملٍ أنْ يستأنفَ الجهودَ فى مستقبلِ الأيامِ !

واضطُرَّ «رالى» تحتَ قَسْوَةِ الظروفِ أن يتركَ المكانَ عائدًا إلى وَطَنه، تاركًا فيه رجلاً من الرجالِ الإنجليزِ وطفلاً منْ أطفَالهم، فى رعايةِ أسرةٍ منَ الهنودِ الحمرِ، يتعلمَانِ لُغتهم، ويعرفَانِ تقاليدَهم وعادَاتهم، حتى إذَا قدرَ له أن يعودَ وجدَ فيهمَا مُترجمين بينَهُ وبينَ الهنودِ، أو دَليلينِ له إلى «مانوا» مَدينة الذهَب .

وركبَ «رالى» ورجالُ حملته جميعًا قواربَهُم، وعادُوا نازلينَ فى نهرِ «كابورى» (Capuri) أحدِ فروعِ «أورينوكو»، مع التيار المندفعِ إلى المصبِّ على ساحلِ المحيطِ. وكانتْ عَوْدتهم بسُرعَةٍ وسهولةٍ عَوَّضتهم منْ عناءِ الصُّعُود.

وما هى إلا أيامٌ قلائلُ حتى كَانوا فى البحرِ ثانيةً عائدينَ إلى سُفنهم التِى أقَلَّتهم إلى وطَنهم بعدَ جهادٍ مَرِيرٍ.

وبالطبعِ أدركَ القارئُ هنا أنهم لم يعودُوا محملينَ بالذهبِ المأمولِ! لأنهم لم يصلُوا إلى مدينةِ الذهبِ كما كانُوا يُؤملون.. ولكنهم حملُوا معهم أنواعًا شَتَّى منَ الأحجار التى كانَ يلمعُ عَلى سُطُوحها قشورٌ صغيرةٌ جدًّا مِنَ الذهبِ. وكانَ القصدُ من حملِهَا معهم أن يختبرهَا العلماءُ فى لندن ويحكُموا عليها إذا كانتْ صَالحةً لأنْ تكونَ مصدرًا من مصَادر الثراءِ المرغوبِ.

وإذا كانَ فاتهم الذهبُ الذِى رَكبوا منْ أجلِهِ كلَّ هذا العناء، فإنهم لم يفُتْهم أنْ يحملُوا معهم أجودَ الأنواعِ من خشبِ الماهوجانى الذِى اشتهرَ بعدَ ذلكَ فى بلادِ الإنجليزِ!

ولعلَّ القارئَ هنا يودُّ أنْ يعرفَ مصيرَ الرجلِ والطفلِ اللذيْنِ تَركهما رالى فى عنايةِ إحدَى الأسرِ الهنديةِ على أملٍ أن يعودَ إليهما فى رحْلته القادِمَة.

لقد بَقى الرجلُ واسمه «سبارو» بعضَ السنينَ يصورُ المواضعَ فى هذه البلادِ حينًا، ويتجرُ فِى الرقيقِ حينًا آخرَ. وقد صَوَّرَ لنا فى

عبارته كيفَ كانت هَذِه التجارةُ - المنافيةُ لكرامَةِ الإنسانِ - تدرُّ عليه المالَ الكثيرَ. فقدِ اشترى ثمانِى نساءٍ منَ الهنودِ جملةً واحدةً بمدْيةٍ ذاتِ مقبضٍ أحمرَ اللَّونِ ! ولم تُكلفه هذِه المدْيةُ فى إنجلترا أكثرَ منْ مليمين بأسعار ذلكَ العصرِ..!

فواعجبًا إلى أىِّ حَدٍّ بلغَ سعرُ الإنسانِ !

أمَّا الطفلُ الإنجليزى، واسمه «جُودوين»، فقد بَقى فِى «فنزويلاَ» بمحْضِ إرَادته ليتعلَّمَ لغَة الهنودِ وَينْطِقَ بها كما ينطِقُونَ، وقد بلغَ منْ إتْقَانِهِ لها أنَّ السير «ولتر رالى» لما عادَ بعدَ اثنينِ وعشرينَ عامًا إلى هذِه الأرضِ فى رحلةٍ ثانيةٍ - كما سيجىءُ - وجدَ الطفلَ - الذى صارَ شابًّا مكتملَ الشبابِ - قد نسِىَ لغته الإنجليزيةَ، لغةَ آبائِهِ وأجْدَادِهِ .

***

لم يفتْ «رالى» وهو فى جزيرةِ ترينداد - فى خلالِ عودتهِ إلى إنجلترا - أن يؤدبَ بعضَ الثغور الأسبانية التِى رفضتْ أنْ تمدَّه بما يحتاجُ إليه من المؤنِ، فقد فرضَ غراماتٍ ماليةٍ عَلى «كُومَانَا»، و«ريودى هاشا»، قبلَ أنْ يأخذَ طريقَه إلى وطَنه. ولعلَّه أرادَ بهذا أن يثبتَ للأسبانِ سمعةَ إنجلترا فى البحار، إذَا كانُوا قد نسُوا الدرسَ الذِى أخذُوه فى موقعةِ «الأرمادا» !!

وَقدْ كانَ فى نيتهِ وهو فى «ترينداد» أنْ يمرَّ على «فرجينيا» فى أمريكا الشمالية، وهى المستعمرةُ التِى كان يحلمُ بإنشائها، لولاَ أنَّ

الفصلَ لم يكنْ مُلائمًا كما سبقَ الكلامُ. ووصلَ «رالى» إلى وطَنه خاويًا من الذهَبِ ومنْ كلِّ شيءٍ، إلاَّ بعضَ حِجَارةِ الكُوَارتز، وبعضَ أخشابِ الماهُوجانى، ورجلاً منَ الهنودِ الحمرِ اسمه «كاوراكو».

وكانَ أعداءُ «ولتر رالى» وخصُومُه فى إنجلترا ينتظرونَ عَوْدته بفَارغ الصبرِ لكى يذيعُوا أن قصةَ هذِه الرحلةِ إلى حوضِ نهر «أورينوكو» لم تكنْ إلا خيالاً فى خيالٍ، وأنها ليسَ لها منَ الواقعِ أدْنى نصيب! وفى سبيل الردِّ عَلى هؤلاءِ المبطلينَ كتبَ «رالى» سنة ١٥٩٦ كتابه بعنوان: «اكتشاف جيانة». وفى الوقتِ نفسِه رسمَ بنفسِه خريطةً للرحْلةِ، ولكنها لم تتم حينمَا طُبعَ الكتابُ .

## بين الحروب والاستكشافات

عاد «ولتر رالى» منْ رحلتهِ إلى «إلدرادو» سنة ١٥٩٥، عادَ إلى وطَنه ولكنه لم يكنْ راضيًا قط عنْ نفسيه. لأنه لم يحققْ الأحلامَ الذهبيةَ الجميلةَ التى تملأ عليه ليلَه ونهارَه، وصبحَه ومساءَه. عاد إلى مدينة «شربورن» (Sherborne) العتيقةِ الأنيقةِ، ولكنه كانَ مشغولاً بحمايةِ الشاطئِ الجنوبى ومُرَاقبته مراقبةً دقيقةً حتى لا يتعرضُ لغاراتِ الأسبانيينَ المتربصينَ.. فلم يفكرْ حينذاكَ فى رحلةٍ كشفيةٍ أخرى إلى «جيانة»، ولكنه أرسلَ صديقَه الوفى «كيميس» فى أوائلِ سنة ١٥٩٦ ليستْطلعَ أنباءَ هذِه الأرضِ منْ جَدِيدٍ ، فرجَعَ «كيميس» يحملُ إليه الأنباءَ بأن الأسبانيينَ – تحتَ قيادةِ «بريو» – أعادُوا تنظيمَ أنفسِهم منْ جديدٍ فى سان «توماس»، قربَ مصبِّ نهرِ «كارونى» .

وكانتِ العلاقاتُ بينَ إنجلترا وأسبانيَا فى ذلكَ الوقتِ تنذرُ بغارةٍ مفاجئةٍ من إحْدى الدولتين عَلى الأُخرى، وبدأتْ إنجلترا بهذِه الحملةِ عَلى ميناء «قادس» (Cadiz) الأسبانية فى يونيو سنة ١٥٩٦. واشتركَ «ولتر رالى» فى هذِه الحملةِ العسكريةِ بنفسِه. وكانَ يديرُ قيادةَ السفينةِ الحربيةِ «وورسبايت» (Warspite) بينما كان الأسطولُ الإنجليزى يشقُّ طريقَه إلى داخِل الميناء. وفى خلالِ هذِه الموقعةِ جُرح «رالى» جُروحًا بالغةً وحملَه البحارةُ الإنجليز إلى الشاطئ، بينما كانَ الجنودُ يندفعونَ كالسيلِ إلى المدينةِ المشهورةِ فى تاريخِ الأسبانيينَ .

وما كَادَت تنتهى معركةُ «قادِس» ويعودُ «رالى» إلى إنجلترا حاملاً إكليلَ الانتصَار الحربى، حتى عَاوده التفكيرُ فى أرضِ «إلدرادو» الذهبيةِ، وفى إمكَانِ اكتشافهَا، مهمَا كلَّفه ذلكَ من جُهودٍ .

وفى سبيلِ ذلكَ أرسلَ سفينةً خاصَّةً، على حسَابه الخاص، لتساعدَ عَلى تقدمِ حملاتِ الاستكشافِ لحوضِ نهرِ «أورينوكو»، الذِى تقعُ فيه مدينةُ «مانوا» بجبالها الذَّهبية وبأحلامهَا الذهبية التِى لم تبرحْ لحظةً واحدةً خيالَ الرجلِ الطَّمُوح ..

وأبحرتْ هذِه السفينةُ من مصبِّ نهر «التيمس» فى أكتوبر سنة ١٥٩٦، ولكنهَا لم تغادرْ ميناء «ويموث» البحرية إلا فى ٢٧ ديسمبر، أى بعدَ يومِ عيدِ ميلادِ المسيح بليلتين اثنتين، حيثُ قَضَى الملاحونَ والرجالُ سَهْرَةً ممتعةً، مملوءةً بالآمالِ .

وظلَّتِ السفينةُ برجالهَا شهورًا طويلَةً فِى البحار، وفوقَ الأرضِ، ولم تَعُد إلى ميناء «بليموث» إلا فى أواخر شهر يونيو سنة ١٥٩٧، ولكنها لم تجمعْ فى خلالِ هذِه الرحلةِ شيئًا منَ المعلوماتِ الهامة، ولم تضفْ إلى المعلوماتِ السابقةِ عنْ حياته شيئا جديدًا يلفتُ الأنظَار .

وظلَّ مشروعُ اكتشافِ «إلدرادو» معطلاً ما يقربُ منْ عشرينَ سنةً، فقدْ حَدثت للسير «ولتر» فى خلالِ ذلكَ أحداثٌ جَسيمةٌ، وغضبَ عليه الملكُ «جاِمس» الأول، الذى تولَّى العرشَ بعدَ «إليزابث» سنة ١٦٠٣، بتهمةِ أنه كانَ منَ المعارضينَ فى تولِّيه لعرشِ إنجلترا، وصُودرت أملاكُه، وأُودعَ سِجن برجِ لندن الكئيبِ، حيثُ كانَ ينتظرُ الحكمَ عليه بالموتِ شنقًا مِنْ حينٍ إلى حينٍ .

## فى ظلام السجن

ما أثقلَ القيودَ بعدَ الحريةِ الكاملةِ فى الذهابِ والمجيء ومَا أكثر ظلامَ الجدرانِ والقضبانِ وهى تحبسُ وراءهَا رجلاً كانَ يتمتعُ بإرادةٍ مطلقةٍ لا تمسكهَا قيودٌ ولا حَديد .

دخلَ «رالى» سجنَ لندن الكَئِيب وَسِنُّه لم تبلُغ بعدَ الثانيةِ والخمسينَ. وأُغلقتْ عليه أبوابُ السجنِ الضخمةِ القويةِ، وانقطع ما بينه وبينَ العالمِ الخَارجى لمدةِ ثلاثة عَشرَ عامًا .

وسُمح لزوجَته وولَده وبعض خَدَمهم أن يقيمُوا معه فى السجنِ حتَّى يتسلَّى بهم، وحتى يجدَ مِنْ عنايةِ الزوجةِ ما يُسَاعده عَلى مقاومةِ المرضِ الذِى أصَابه.

وأخذَ الرجلُ يتسلَّى فى السجنِ بالقراءةِ والتأليفِ ورسمِ الخرائطِ ونظمِ الشعر! وأذِنوا له بأن يحملَ معه من الكتبِ التى كانت مِلكًا له أو مُعَارة منْ غيرهِ مَا يُرِيد. وفى خلالِ فترةِ السجنِ أنجزَ القائدُ الملاحُ تأليفَ كتابهِ «تاريخ العالم» الذِى يُعَدُّ منَ الكتبِ المهمةِ فى كتابةِ التاريخ.

ولم ينسَ وهو فى ظَلامِ السجنِ وبينَ القضبانِ مشروعَ اكتشافِ مَدينة «مانوا» ، و«بلاد جيانة» التِى كَانت شُغْله الشاغلُ فيما مضَى منَ السنينَ.

ولم يجدْ فِى قُضبانِ السجنِ مَا يمنعه منْ إتمامِ الرحلـةِ حتَّـى يصـلَ إلى الغايةِ التِى كانَ يحلمُ بهـا، وهـى كشـفُ مناجمِ الذهبِ فـى ذلـكَ الإقليمِ البعيدِ!. فكتبَ إلى الملكِ «جايمس الأول» يلتمسُ منـه السـماحَ له بمغادرةِ السجنِ علـى أنْ يركـبَ البحـر فـورًا إلى أمريكـا الجنوبيـة

لينجزَ مُحَاولته فى سبيلِ اكتشافِ حوضِ نهرِ «الأورينوكو». فإذَا لم يتعطَّف عليه الملكُ بالإذنِ له بقيادةِ هذِه الحملةِ، فلا أقلَّ منْ أنْ يُعينه دليلاً لها يعملُ تحتَ قيادةِ منْ يختاره الملكُ لهذا المشروعِ الخطيرِ.

وأخذَ «رالى» على نفسِه عهدًا مَكْتوبًا يقولُ فيه: «إذا عجزتُ عنْ أنْ أقودَ رجالَ هذِه الحملةِ المقترحةِ إلى جبلٍ مُغَطى بالذهبِ والفضةِ، فإنَّ قائدَ الحملةِ - الذى أتركُ تَعْيينه لإرادةِ الملكِ - فى حِلٍّ منْ أنْ يقطعَ رقبتى هناكَ أمامَ بقيةِ الرجالِ !».

وبالطبعِ لم يقبلْ «الملكُ جايمس» هذَا الالتماسَ لأولِ وهلةٍ، فقد ظلَّ السير «ولتر» السجين يعيدُ الالتماسَ مرةً وأُخرى، ويتوسطُ لدَى الملكِ الغاضبِ عليه بالوسطَاءِ المقربينَ، وَيتوسَّلُ إليه بالشفعاءِ الذينَ لا تردُّ شَفَاعتهم، ولا يُخيبُ رجاؤُهُم.

وأحسَّ السير «ولتر رالى» أن الملكَ لم يُصرح تَمامَ التصريحِ بالرحلةِ، ولكنه لا يمنعهَا. فأخذَ يستعدُّ للرحلةِ، وأخذَ يمونها مما بقَى عندَ زوجَته منْ أموالٍ، فقد كانت كلُّ أموالهِ هو مُصَادرة. وأخذَ الرجالُ الذينَ اخْتَارهم «رالى» للقيامِ بهذِه الحملةِ مُتطوعينَ يقدمونَ الإعاناتِ منْ أمْوَالهم الخالصَة. وبالطبعِ لم يتردَّدُوا فى المساهمةِ ببقيةِ نفقاتِ الحملةِ الكَشْفية، عَلى أملٍ أنْ يستردوا مَا دَفعوه أضعافًا مُضَاعفةً. فهناكَ سَيُتفتحُ لهم الكنزُ المأمولُ عنِ الثراءِ المرغوبِ !

ولا يزالَ التاريخُ يحتفظُ بأسماءِ بعضِ الذينَ ساهموا بمالهم وتطوعُوا بأنفسِهم للاشتراكِ فى حملةِ جيانة، ومنهم «شارلز باركر»، والكابتن «نورث»، والسير «وارهام»، و«جورج رالى» ابن أخى القائد العظيم. كما كانَ معهم من كبار الملاحينَ ورجالِ البحرِ «كيميس»، والكابتن «بننجتون» وغيرهما، ممن لهم شهرةٌ فى عَالمِ البحار .

وهكذا امتلأتِ السفنُ التى أعدهَا «ولتر رالى» لهذِه الرحلةِ بالصَّفْوةِ[1] المختارةِ منَ الملاحينَ والروَّاد الماهرينَ. إلا أنها - لسُوءِ الحظ - قد اجتمعَ فيهَا فى الوقتِ نفسِه جماعةٌ منَ المخمورينَ والأَفَّاقينَ الذينَ تمنى آباؤُهُم أو أقاربُهُم أن يتخلَّصُوا منهم ومن سخَافَاتهم بإرسَالهم فى هذه المغامرةِ التِى قد لا تردُّهُم ثانيةً إلى وَطَنهم !

وأخذتْ أنباءُ هذِه الحملةِ تترددُ فى كلِّ مكَانٍ، حتَّى عَلم بهَا الأسبانُ عنْ طريقِ سَفيرهم فى لندن. فرفعَ السفيرُ صَوْته بالاحتجاجِ على رحلةٍ ستخترقُ فى طريقهَا إلى الذهبِ أرضًا أسبانيةً، فإنَّ مقاطعةَ «جيانة» كلها كانت فى يدِ الأسبانيينَ. فإذا مَا اجترأ السير «ولتر رالى» على دخُولِ «جيانة» أو التوغُّل فى حوض نهر «أورينوكو»، فإنه يكونُ قد اعْتدى عَلى تُخومِ[2] ممتلكَاتِ الملك «فيليب».

---

(١) الصَّفْوُ: الصَّفَاءُ ومن الشيء: خيارُهُ وخَالِصُه.

(٢) تاخَمَ الموضعُ الموضعَ: جَاورَهُ ولاَصَقَهُ.

وبالطَّبع كانتْ مخاوفُ السفيرِ شديدةً، وكانَ على حَـقٍّ فِـى توجُّس الشَّر من هـذِه الحملـةِ الاستكشـافيةِ فـى ظاهرهَا، فَقَـدْ كـانَ مـنَ المحتمـلِ جـدًّا أنْ ينتظـرَ «رالى» بأسْـطُوله وقتًـا فـى مصَـبِّ نـهرِ «أورينوكو»، ليشنَّ هجومًا عنيفًا على الأسطولِ الأسبانى فـى ميـاهِ المكسيك، عَلـى الرغـمِ مـن قيـامِ السَّـلامِ بـينَ الدولتـينِ فـى عصْرِ«الملكِ جايمس» .

ولم يسْكُت «رالى» - وهو عَلى أهبةِ الرحيـلِ - عَلـى ذلـكَ الاتـهام، فاحتجَّ عَليه بأنه لا يحملُ أىَّ عـداءٍ أو نيـةِ عـدوانٍ عَلـى الأسـبانيينَ، وأنه ليـسَ إلاَّ رجـلاً مـن روَّادِ البحَـار، ومُسْتكشـفى الأقطـار. وأنـه ليسَ قُرصانًا منْ قراصنةِ البحرِ كما يَظُنُّ الأسبانيونَ. وأنه سـيقومُ برحلةٍ كَشْفيةٍ إلى مَنَاجـم حَقيقية لا خَيَاليـة منَ الذهبِ ! وأنَّ هـذِه المناجمَ لا تقعُ أصلاً فِى أرضِ ملكِ أسبانيا ولا قريبًا مِنْ حُدُودها !

ولم يكنْ «رالى» صادقًا فى هذِه العبارةِ الأخيرةِ، فَقَدْ كَـانَ يعلـمُ - حَقَّ العلمِ - أنَّ الأسبانَ تملكُوا هذِه الأرضَ قبـلَ أنْ يصـلَ هـو إليـها فى رحْلته الأولى .

وخوفًا منْ إثارةِ فتنٍ لاَ داعى لها الآن بينَ الدولتينِ، وحرصًـا عَلـى توثيـقِ العلاقـةِ بينـهمَا - بعـدَ أن كـانت وَاهنـةً[1] فـى عصـرِ الملكـةِ «إليزابث» - فـإنَّ السـير «ولـتر رالـى» تَلَقَّـى مـنَ الحكومـةِ أوامـر

(١) واهِنَةٌ: ضَعِيفَةٌ.

صَارمةً بـأن لا يثـير فـى خـلالِ رحَلاَتـه الكشـفيةِ أيـةَ عـداوةٍ ضِـدَّ الأسبانِ، وأنَّ أيةَ مخالفةٍ لهذِه الأوامرِ ستجعلُ رأسَه ثمنًا لها ..

وبدأ «ولتر رالى» رحْلته إلى «جيانة» سنة ١٦١٦ بعدَ خلاصٍ مُؤقـتٍ منْ ظُلماتِ سجنِ البرجِ القديمِ، ويظهرُ أنَّ الطبيعةَ نفسَهَا اشتركتْ فِى مُعَاكسته إلى حَدٍّ كبيرٍ، حتى تجعـلَ مـنْ رحْلتـه - التـى لم يحصـلْ عليها إلا بشِـقِّ الأنفـسِ - حَادثًـا مَمْلُـوءًا بالصُّعوبـاتِ التـى لم يكـنْ يتوقعهَا وهو وراءَ القضبانِ .

وسَارت السفنُ فى أولِ طريقهَا إلى بلادِ الذهـبِ الكثـيرِ، بـينَ فَـرَحِ الركابِ وأمَلهم فى العودةِ مُحملين بأغْلى الكنوز. ولمَـاذَا لا يفرحـونَ وبريقُ الذهبِ الذِى لَم يروه إلى الآن يكادُ يخطفُ أبصَارهم؟!

ولم تكـدْ قطـعُ الأسـطولِ المُكْتشـفِ تغـادرُ ميناءَ «بليمـوث» فِـى جنوبى إنجلترا حتى هَبَّت عاصفةٌ شديدةٌ، وبلغَ من شدتهَا أنَّ السـفنَ كُلَّهَا تناثرت وتباعدَ بعضُهَا عنْ بعضٍ، فلمْ تَـرَ واحـدةٌ منـها أختَـهَا، وتشتَّتَ شملُ هذِه السفنِ بعدَ أن كـانتْ مُجتمعـة، وحملـتِ العواصـفُ كلَّ سفينةٍ منها إلى مكانٍ فى البحرِ لا تعرفُه الأُخرى. واضطرَّ بضعٌ منَ السفنِ إلى الرجوعِ ثانيةً إلى ثَغْرِ «فالموث» (Falmouth).

وعَادت قطعُ الأسطولِ كُلُّها إلى الشاطئ الإنجليزى لتجمعَ شملهَا منْ جديـدٍ، وهنـاكَ أصلحُـوا مـا تكَسـر مـن صَوَاريـهم، ومـا تمـزقَ مـن

شِرَاعهم وانتظرُوا أيامًا حتَّى يهدأ الجـوُّ وتُوَاتيـهم[١] الظـروفُ عَلـى الرحيلِ.

وأصبحَ يومٌ منَ الأيامِ وقد بدَت فى الجو علاماتٌ ملائمـةٌ للسـفرِ، فرفعُوا مَرَاسيهم من المياهِ الإنجليزية، وتركُوا القلوعَ للريـحِ الطيبـةِ المواتيةِ، ولكنهم لم يكَادوا يبعدونَ فى البحرِ قليلاً حتـى تغـيَّرَ الجـوُّ، واشتدّت الريحُ، وزأرتِ العواصفُ كما تزأرُ الأسُود[٢]. وحدثَ لهـم مـنَ الهولِ أكثر مما حدثَ فى المرةِ الأُولى، فغرقتْ إحدَى السفنِ بـأكثرَ مـنْ فيهَا منَ الرجالِ الذينَ طَواهم البحرُ فِى أعماقـه، ولم ينـجُ منـهم إلا القَليل .

والتجـأُوا إلى جزيـرةٍ صغـيرةٍ فـى عـرضِ البحـرِ اسمها «جزائـر سيلى»، ليحتمُوا فى ثغرهَـا مِـنْ آثـار العَاصِفـة، وأقـامُوا بـهَا أيامًـا ليستأنفُوا الرحلةَ للمرةِ الثَّالثةِ مِنْ جَدِيد .

ولم تكنْ هـذِه المـرةُ أسْـعد حظًّـا مـنَ المرتـينِ السـابقتين، فـهبَّتْ عليهم عاصفةٌ لا تقلُّ فى شدتهَا عنِ العواصفِ التـى صَادَفَتْـهُم فـى أولِ الطريقِ. وحَملتـهم العاصفـةُ - عَلـى الرغـمِ منـهم - إلى ميناء «كورك» فى جزيرة «إيرلندة»، حيثُ اضطرُّوا إلى البقاءِ هنـاكَ سِـتَّةَ أسابيعَ كاملةً فى انتظار سُكونِ العَاصفةِ واعتدالِ الريح.

---

(١) تُوَاتِيهم الظُّروف: تَحِينُ لهم فرصَةُ الرجُوع.

(٢) زَأر الأسدُ: زأرًا. وَزَئيرًا : صَاحَ مِنْ صَدْره.

كانتِ الأيامُ الطويلةُ التى قَضُوهَا فى صراعٍ معَ العواصفِ، وفِى انتظار السكونِ، كافيةً لأنْ تَسْتنْفِدَ جُزءًا كبيرًا من جُهُودهم، ومنَ المؤنِ والطعامِ الذِى كانُوا يحمِلُونه مَعَهم، كَما كانت كافيةً لأَنْ تنتزِعَ الأملَ مِنْ نُفُوسهم وتجعَلَهم عَلى حَافةِ اليأسِ .

واجتمعَ عَلى رجالِ الرحلةِ عواملُ كثيرةٍ تحملُهم على السخطِ، بل تَدْفعهم إلى العصْيانِ والتمرُّد. فَهُم الآنَ فى ثغرِ «كورك» بلا عملٍ ولا شغلٍ يَشْغلهم حتَّى كَادَت البطالةُ تقتلُهم. وفَشَا[1] المرضُ فيما بينهم منْ أولِ الرحلةِ إلَى آخرهَا، وزادَ من سُخطهم أنهم عرفُوا أنَّ السير «ولتر رالى» قَدْ نزلَ فِى داخلِ «إيرلندة» ليزورَ السير «ريتشارد بويل»، وليسَاهمَ معه فى عمليةِ استخراجِ النحاسِ من بعضِ المناجمِ هُنَاكَ!

وهكذَا قَضَى رجالُ الحملةِ الكشفيةِ أجملَ أيام الصيفِ فى كَسَلٍ وتعطُّلٍ وَنَفَادِ مَؤُونة، ويأسٍ ومرضٍ وسخطٍ شديدٍ. ولم يكونُوا على استعدادٍ لاستئنافِ الحملةِ إلا بعدَ منتصفِ أغسطس بأربعةِ أيامٍ.

أخذت سفنُ الحملةِ تمخرُ[2] مِيَاهَ المحيطِ حتى رسوا فى يوم ٦ سبتمبر على «جزائر كانارى» (Cannaries)، وفى إحدَى ثغورهَا المسمَّى «لانسروتا» كانَ الرجالُ يبحثونَ عنْ مكانٍ يتزودُونَ

---

(١) فَشَا المَرَضُ: انتَشَرَ.

(٢) مَخَرَت السَّفِينةُ: مخْرًا. ومُخُورًا: جَرَتْ تَشُقُّ الماءَ.

منه بالماءِ الصالحِ لشُـرْبهم. وبعـدَ مباحثـاتٍ ومفاوضـاتٍ طويلـةٍ مـعَ الحاكمِ الأسبانى لهذه الجزُر، سَمَحَ لهم بأنْ ينزلَ بعضُ الرجالِ إلى الـبر ليأخذُوا حَاجَتهم منَ الماءِ .

وأخذَ الحاكمُ الأسـبانى يماطلُ الإنجليزَ ويُسـوفُ لهـم فـى الإذنِ لهـم بالنزولِ إلى البر عَنْ قصدٍ منه، حتى يشـغلهُم بعـضَ الوقـتِ لينقـلَ رجَالُه مَا فِى الثغرِ منَ السلعِ والبضائعِ إلى داخلِ الجزيـرةِ تأمينًـا لهـا منْ عبثِ الإنجليز أو طَمَعهم فيهَا أو مُصَادرتهم لها. لم يكنْ يَبْدُو عَلـى سُلوكِ الإنجليزِ أىُّ أثرٍ من آثار النـهبِ والتلصُّـصِ، ولكـنَّ الأسـبانيينَ كانوا منهم على حذر شَدِيد !

ولم يكدْ يُسمحُ لبعضِ الإنجليزِ بـالنزولِ إلى الـبر، حتَّـى سَـرت فِـى الجزيرةِ إشاعاتٌ قويةٌ بـأنَّ هـؤلاءِ الوافديـنَ ليْسُـوا إلا جَماعـة مـنَ القراصنةِ الأشدَّاء! وتحمسَ الوطنيونَ منْ سكَّانِ هَذه الجـزر فَقَتَلـوا فى فورةِ الحماسةِ خمسةَ عشرَ رجلاً مِنَ الإنجليز .

وَثـار بقيـةُ رجـالِ الحملـةِ، وصَمَّمـوا عَلـى الأخـذِ بثـأر قَتْلاَهـم والانتقَام منَ الأسبانيينَ والمواطنينَ عَلى السَّوَاء، ولكنَّ السـير «ولـتر رالى» سَـكَّنَ غَضَبـهم، وهَـدَّأ ثائِرتـهم، وأفهمَـهم أنَّ هـذَا الانتقـامَ سيُعرضهم لسخطِ «الملكِ جايمس» مـنْ ناحيـةٍ، وسـيُؤثر فـى تجَارةِ الإنجليزِ معَ هذه الجزر منْ ناحيةٍ أُخرى!

ولكنَّ ما حدثَ فى هـذه الجـزر بـينَ «رالى» وبـينَ الأسـبانيينَ كـانَ سببًا لأنْ يُتَّهَمَ «رالى» بالقرصَنَة، فكانت إحدَى التهمِ التِى أُسْـندت إليـه

واستحَقّ منْ أجلهَا الإعدَامَ، بعدَ جهادِهِ وخدْمته الطويلة فى سبيلِ إنجلترا، وفى سبيلِ القضَاءِ على قوةِ أسبانيا فى البحَار .

وَغَادر السير «ولتر» ورجالُ الحملةِ ميناءَ «لانسروتا» إلى ثغر «جوميرَا» (Gomera) حيثُ رَأوا منَ الحفاوةِ وحسنِ اللّقاءِ ما لم يشْهدوه فى مكانٍ آخرَ حتَّى فى ميناءِ «كورك» الإيرلندى. وكانَ هذا الميناء أسبانيا، كما كانَ حَاكمه أسبانيًّا، إلاَّ أنَّ زوجَته الإنجليزيةَ فرحَت حينما رأتْ مواطنها المشهور «ولتر رالى» ينزلُ معَ رجالِهِ فِى هذا الثغرِ، فأكرمَت الحَمْلَةَ كُلَّهَا، وبعثتْ إليهم من أطيب الثمار، وأشهى الفَوَاكه، ومن الخبزِ والسكرِ ما كَانوا فى حاجةٍ إليهِ منذُ قَليلٍ، وخاصَّة بعدَ أنْ تَفَشَّى المرضُ فيهم نتيجةً لسوءِ التغْذِية !

وتركَ «رالى» فى هذا الثغرِ منْ حسنِ الأثرِ وطيبِ السُّمعة ما كانَ يجبُ أنْ يكونَ موضعَ التقديرِ عندَ المنصفينَ، ولكن «جوندومار» سفير أسبانيا الجديد فى لندن تَلَقى هذه الأنباءَ بغيرِ تحمُّسٍ ولا تَهْلِيلٍ.

ومنْ ثغرِ «جوميرا» بدأتِ الحملةُ تتخذُ طريقَهَا إلى أرضِ «جيانة» بلدِ الأحلامِ والذهبِ النضَار..

وكانَ منْ تمامِ الحظِّ الحسَن أنْ يصلُوا إلى «جيانة» ولو بعدَ عناءٍ طويلٍ. فإنَّ مَا رأوهُ مِنَ الأهوالِ لم يكنْ كفيلاً بإيصَالهم سالمينَ إلى الغرضِ المنشُودِ. لقد كانَ اجتيازُ الطريقِ هنَا مملوءًا بالعواصِفِ والحمى التى تقطعُ الأوصَال، ولم يكادُوا يجتازونَ عقبةً منَ الأهوالِ

والزوابعِ إلا ليقعُوا فِى أشدِّ منها.. وكانت كلُّ لحظةٍ تمرُّ عليهم تحملُ لهم نَعْىَ رجلٍ من رجَالهم المساكين، حَتَّى ماتَ عَلى ظهرِ السفينةِ «ديستنى» وحدَها اثنانِ وأربعونَ، بينهم بضعةٌ منْ رؤساءِ الملاحينَ الذِينَ كانَ رالى يعتمدُ عليهم، ويضعُ ثِقَتَهُ فيهم.

ولم يسلمْ «رالى» نفسُه منْ أن يقعَ فريسةً للحُمَّى التِى ظلَّت تهدُّ كَيَانه يومًا بعدَ يومٍ، فما كانَ حظُّه هنَا بأسعدَ منْ حَظِّ زُمَلَائه المنكُودينَ. ولكنَّ مرضَه وعَذابه الطويلَ الذِى لقيه لم يمنعْ منْ قيامِ التمردِ والعصيانِ بينَ الملاحينَ الذينَ يلعنونَ الحظَّ السيىءَ الذِى أوقعهم فى هَذِه المغامرةِ المشئُومَة. وهكذَا أنقذته الأقدارُ فى دارِ الغربةِ لأنها كانت تعدُّه لختامٍ أليمٍ فى الوطنِ كما سَيجِىء.

وصلَ الباقى من رجالِ حملةِ «رالى» الكشفيةِ إلى مصبِّ نهر «أويابوك» (Oyapok) وهو أحدُ الأنهارِ التِى تَجْرِى فى أرضِ «جيانة». وهنَا تمنَّى الملاحُ المغامرُ لو انضمَّ إليه «ليونارد» الفتى الهندِى الذِى كانَ أخذَه معه إلى إنجلترا فى رحْلته الأُولى إلى هذِه البلادِ وعاشَ فيها أربعًا أو خمسًا منَ السنينَ.

آه لوْ علِمَ «ليونارد» أنَّ صديقَه الإنجليزى القَدِيم «ولتر رالى» قَدْ عادَ إلى هذِه الأرضِ ثانيةً كما كانَ وعدَ ليتم استكشافهَا، وليصلَ إلى مناجِم الذهبِ التِى تُجللُ مدينةَ «مانوا» فى وسطِ بحيرةِ «بارِيمَا» الذَّهبية !

ولكنَّ «ليونارد» الهندِى لم يكنْ هنَا عندَ مصبِّ نهر «أويابوك» ليستقبلَ صَدِيقَه القَدِيم ..

فتحركَ «رالى» بسُفنه التى بَقَى منها عَشْـرُ سُـفُنٍ، بعـدَ أنْ غـرقَ بعضـهَا، وتـاهَ بعضُـهَا الآخـرُ فـى غمـراتِ المحـيطِ. وقـد كـانَ أسطُوله فى أولِ الأمـرِ حينما تحـركَ من «بليموث» مكونًا مـن أربـعِ عشرةَ سفينةً.

ولكنْ إلى أينَ يكونُ خطُّ السيرِ الجديد؟ لقد اتجهَ «رالى» إلى مصـبِّ نهرِ كاين (Caynne) الذِى لا يبعدُ كثيرًا عنْ مَصَبِّ نهر «أويابوك» .

وهنَا استقبلَه أصدقاؤه القدماءُ منَ الهنـودِ الحمـرِ بفـرحٍ عظيـمٍ، وبحماسةٍ كبيرةٍ، بعد أن غاب عنهم عشرينَ مـنَ السـنين. لقـد رحَّـبَ الهنودُ بالرجلِ الذِى شاهدُوا حُبَّـهُ لهـم وعْطفَـهُ علَيـهم، بينمـا ذَاقُـوا مرارةَ الاستعمار على يدِ الأسبانيينَ ..

وما كانَ أكثرُ فرحِ «رالى» وهو يكتبُ إلى زوجَته فـى لنـدن رسـالةً يقولُ فيها إنه يعيشُ بينَ الهنودِ كأنه مَلِكهم، وأنهم لا يَضِنُّـونَ عليـه بتقديمِ أطيبِ اللحمِ، وأجود ما تجودُ به الأرضُ منْ ثمراتٍ .

وَبَقَى «رالى» فى مصبِّ نهرِ «كاين» حَتى استردَّ رجالُه صحَّتـهم، وعـادَ إليهـم نشـاطُهم، فانتقلـوا بسُـفُنهم إلـى جزيـرةِ «التَّحِيَّـة» (Isle de Salut). وهناكَ استعدُّوا لبدءِ المغامرةِ فى داخلِ البلاَد.

وكان خَمْسٌ منْ سفُنه العَشْر منْ صغـرِ الحجـمِ بحيـثُ تسـتطيعُ عبورَ السدِّ الذِى عندَ مصبِّ النهرِ، لتصعدَ فى النهرِ فى اتجـاهِ المنبـعِ.

فوضعَ فيهَا «رالى» ٤٠٠ رجل مــن رجَالـه الذِيـن اخْتَـارهم مـن دُونِ رجَالِ الحملـةِ كُلِّهَــا، لوُثُوقــه مِــنْ مَقْدِرتـهم علـى تحمُّــلِ أعْبــاء الطَّريق.

ولم يكـنْ «رالى» مـنَ القـوةِ واعتــدالِ الصحــةِ بحيــث يســتطيعُ الصعودَ فى النهرِ معَ الصاعدينَ، فقد كـانت آثـارُ الحمـى لا تـزالُ لها بقيةٌ بجسْمِهِ الهزيلِ، ومع ذلكَ فقد صممَ عَلى السيرِ مَعَــهم، إلا أنـهم ألحُّوا عليهِ فى البقاء عندَ مصبِّ النهرِ مع السفنِ الباقيةِ الرابضَــةِ[1] على ميــاهِ المحيـطِ، فـى انتظـار مَـا قـد يحـدثُ مـن هجمـاتِ السـفنِ الأسبانيةِ التِى كانت حَملاتها مُتوقعة من حينٍ إلى حينٍ ..

وهنَا قالَ لهم هذَا المغامرُ الجرىءُ فى لهجةٍ مملوءةٍ بالثقةِ والشجاعةِ والاطمئنان: «إنكم ستجدونَنِى هنَا فى هذَا المكانِ – بعدَ عودتكُم منَ الرحلةِ – حَيًّا أو ميتًا. وإذا لم تجـدُوا هـذه السـفنَ، فـإنكُمَ سـتجدونَ حُطَامها؛ لأننِى سَأصْلَى سفنَ الأسبانِ نيرانًا حَامِيةً، ولكنْ مِنَ المحـالِ علىّ أن ألوذَ[2] بالفرار..».

بقى «رالى» عَلى ساحلِ البحرِ قُرب «بونتو جاللو» بسُفنه الخمْـس الرابضــةِ وتـركَ السـفنَ الخمـسَ الأخـرى تصعـدُ إلى النـهرِ بقيــادةِ

---

(١) ربَضَت السَّفينَةُ: أقامَتْ بالمكان.

(٢) لاَذَ بالشيءِ لَوْذًا وَلِيَاذًا: لَجأَ إليه واسْتَتَر به وتَحَصَّنَ.

صَديقه الوفى «كيميس» ، وكانَ ابـنُ أخيـهِ جـورج قـائدًا عسـكريًّا للجنودِ الذينَ كانَ من بينهم ابنه «ولتر».

وأعطاهُم «رالى» الأوامرَ بأن ينزلُوا إلى البر عَلى ضفةِ النهرِ عندَ مكانٍ مُعين اتفقُوا عليه، وبعدهَا يأخذونَ فـى المشى عَلـى الأقـدامِ بضْعَةَ أميالٍ إلى المنجمِ المأمولِ ..

وبدأت الحملةُ فى العاشرِ من شهر ديسـمبر، واحتـاجُوا إلى ثلاثـةِ أسابيعَ كاملةً لكى يبلغوا المجـرى الرئيسـى لنـهر «أورينوكـو». ولكـنَّ الحظَّ السـيىءَ صَادفـهم هنَـا مـرةً أُخـرى. فتعطَّلـت سـفينتانِ مـنَ السفنِ الخمْـس، ولم تسـتطيعَا أنْ تواصـلاَ السـير صعـدًا إلى المنبعِ، فـاضطرت السـفنُ الثـلاثُ إلى تَرْكـهما والمضـى قدمًـا إلى الغـرضِ الجليلِ.

وكانَ الأسبانُ قدْ بَلَغتهم أنبـاءُ قـدومِ الإنجليز وصُعُـود سُـفُنهم إلى نهرِ «أورينوكو» فى أرضٍ هـى فـى يَـدِ الأسـبان وتَحـتَ لـواءِ مَلِكـهم، فأطلقُوا النارَ عليهم من ضفافِ النهر، بينما أسرعَ حاكمُ «ترينـداد» و«جيانة» إلى مدينة «سَان توماس» التـى تقـعُ قريبًـا مـن مُلتقـى نهر «كارونى» بنهر «أورينوكو».

ولم تكنْ مدينةُ «سان توماس» هَذه إلا مَنْشأة جَديدة غير مدينـةٍ بهذا الاسم، كان «ولتر رالى» قد زارهَا فِى رحْلته الأُولى منـذُ عشـرينَ عامًا، ولكنَّ أصْحَابها هجروهَا إلى ذلكَ الموضعِ الجديدِ .

وكانَ معتقدًا أنَّ «سان توماس» تقعُ مباشرةً عَلى الطريقِ إلى منجمِ الذهبِ الذِى كانَ مفروضًا أنه يقعُ عَلى بعدِ ثلاثةِ أميالٍ فوقها قربَ جبلِ «آيو» (Aio) ولكنْ كيفَ السبيلُ إلى أرضِ الذهبِ ودُونها سَدّ منيعٌ منْ جنودِ الأسبانيينَ؟ كَما أنَّ كمينًا كَان واقفًا للمهاجمينَ بالمرصَاد ؟

ولكن «كيميس» صممَ عَلى أنْ يهجمَ على مدينةِ «سان توماس»، فاقتحمهَا اقتحامًا وأشعلَ فيها النيرانَ حتى لا تقفَ حجرَ عثرةً فى سبيلهِ إلى مناجمِ الذهب. وقد كَلّفته هذه الجملةُ مصرعَ الشاب «ولتر» ابن السير «ولتر رالى».

واستمرَّ الإنجليزُ فى هُجُومهم، كما استماتَ الأسبانُ فى دِفَاعهم، واستبسلُوا فى القتالِ، واحتمُوا بالغاباتِ استعدادًا لردِّ الإنجليز على أعْقَابهم.

وهنَا لم يجدْ «كيميس» بُدًّا منَ الاعترافِ بأن الوصولَ إلى الذهبِ مطلبٌ صعبُ المنالِ ! فعادَ يجرُّ أثوابِ الخزى إلى «بونتو جاللو» حيثُ كانَ السير «ولتر رالى» مُنتظرًا بسُفنه الخمس يراقبُ السفنَ الأسبانيةَ على شواطئ المحيطِ .

وَحملَ «كيميس» إلى السير «ولتر رالى» نبأَ المعركةَ الخاسرة، ونبأَ مقْتل ولدِه «ولتر»، ولكنَّ شيئًا واحدًا قد خففَ من حُزنه وسُخْطه ويأْسِه.. لقد حملَ له «كيميس» دليلا آخر جديدًا على وجودِ منجمِ

الذهبِ وعلى غناهُ بالكُنوز! وهنا أبـدى «رالى» رغْبتـه القويـةَ فـى أن يعودَ مع رجَاله ليستأنفَ المحاولةَ مِنْ جَديد !

ولكنَّ الإرهاقَ والإعياءَ وحـرارةَ المعركـةِ قَـد زَهَّدَتـهم فـى الذهـبِ وفى بريقهِ الذِى يعمى الأبصَار!

ولم يخشَ البحارةُ والجنودُ والرؤساءُ أنْ يصَارحوه أنهم حتـى علـى فرضِ عُثُورهم على الذهبِ فـإنَّ دَوْرَهـم فـى القضيـةِ لا يتعـدَّى أنْ يكُونوا حَاملِيه على أكْتَافهم! ومُوصليه إلى أعتابِ الملكِ الـذِى كثيرًا ما صرحَ بأن الملكَ فوقَ القانون..

وإلى هنَا تفرقتِ السـبلُ بسـفُنِ الحملـةِ، فعـادَ «رالى» ومعـه أربـعٌ فقط منَ السفنِ الأربعِ عشرةَ التى خرجَ بـها إلى الرحلـةِ، ومـرَّ فـى طريقِ عودتهِ عَلى «نيوفوندلند» بأمريكا الشمالية حيثُ كـانَ يحلـمُ دائمًا بإنشاءِ أولِ مُستعمرةٍ إنجليزيةٍ هُنَاك.

وعَاد «رالى» إلى ثغرِ «بليموث» بإنجلـترا فـى منتصـف يونيـو سـنة ١٦١٨، ولكنَّ عودته هذِه المرة لم تكن إلاَّ ليلقى مَصيره المشئُوم، وهـو الإعدَام، فى ساحةِ القصرِ القديمِ (Old Palace Yard).

وكان السببُ فى إعْدَامه هو مَسَاعى «الكونت جوندومـار» سَـفير أسبانيا فى إنجلـــترا بسـببِ الحملـةِ العسـكريةِ العنيفـةِ عَلـى مدينـةِ «سان تومَاس»، فى وقـتٍ كانَ «الملـكُ جايمس الأول» فيـه يخطـبُ ودَّ الأسبانيينَ..

ولقَى القائدُ البحرِى العظيمُ والرائدُ الطموحُ ختامَه الحزِيـنَ فـى ابتسامةٍ وَهُدُوء ..

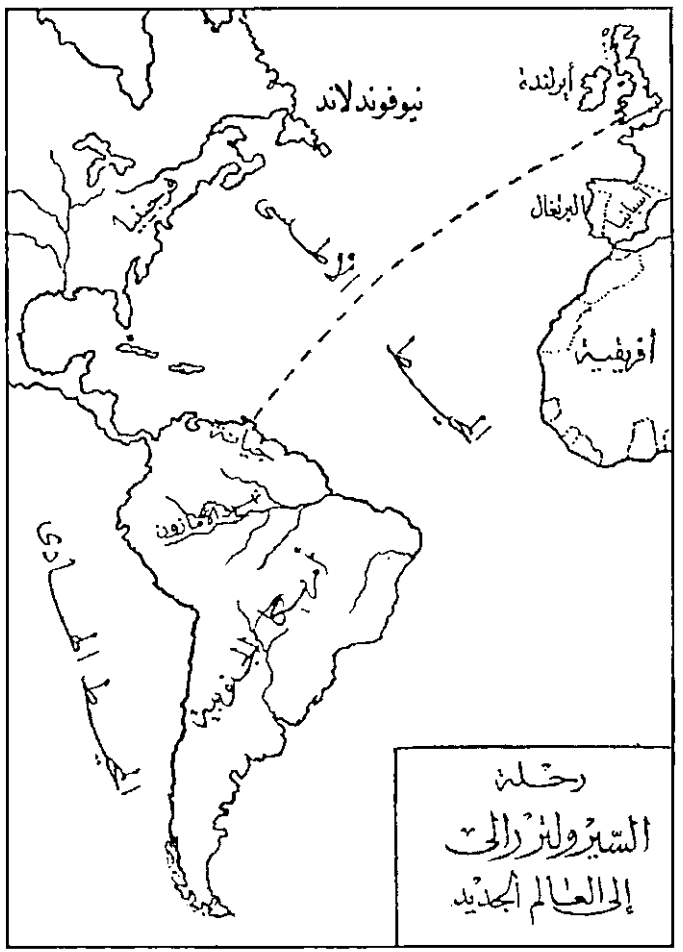

نيوفوندلاند
أيرلندة
البرتغال
إسبانيا
فرجينيا
أفريقية
جيانة
نهر الأمازون
أمريكا الجنوبية
رحلة
السير والتر رالي
إلى العالم الجديد

| | |
|---|---|
| رقم الإيداع | ٢٠٠٤/٨٣٠٨ |
| الترقيم الدولى | ISBN 977-02-6651-5 |

٧/٢٠٠٣/٨٣

طبع بمطابع دار المعارف ( ج . م . ع . )